عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

فلسفة المدح

في شعر زهير بن أبي سلمى

دكتور

يونس إبراهيم أبو مصطفى

عضو هيئة التدريس

كلية التربية

جامعة بنغازي - ليبيا

مجلة الثقافة والتنمية | العدد التاسع والأربعون (٤٩) | اكتوبر ٢٠١١م

فلسفة المدح في شعر زهير بن أبي سلمى

د. يونس إبراهيم أبو مصطفى
عضو هيئة التدريس
كلية التربية – جامعة بنغازي - ليبيا

زهير بن أبي سلمى أحد الثّلاثة المقدّمين في الجاهلية ، أبعد الشّعراء عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل اللفظ ، وأكثرهم أمثالاً في شعره ، لا يعاظل بين القول ، ولا يتّبع حوشي الكلام ، ولا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه ، رافقته الحكمة والرّزانة في جميع أغراضه ، رزين في مدحه ، فُضل على الشّعراء لأنّه أمدح القوم ، وإذا كان له في مختلف أغراضه أشياء حسان ، فخير شعره ما قاله في مدح سادات بني ذبيان ، والدّفاع عن القبيلة ، وإسداء الحكم الاجتماعية في حسن السّياسة ومكارم الأخلاق ، فمدائحه مثال لأسلوب المدح الجاهليّ ، تظهر فيها مناقب الأشراف والفرسان ، ولعل أفضل مدائحه وأكثرها ما قاله في هرم بن سنان ، لأنّه كان شديد الحبّ له ، وكان هرم يبرّه ويجزل له العطاء ، وهذا لا يعنى أن مدائحه للآخرين لا يعدوها الجمال ، ولا يقلّ أصحابها عن هرم شرفاً وسؤدداً .

ومن النّافلة القول أنّ لعاطفة الإعجاب مشاركة في إثارة الانفعالات التي تبعث على نظم الشّعر ، وأهمية في صدق الشّعور والإخلاص في التّعبير عما يعتلج في خواطر الشّعراء ، هذه العاطفة أوفر حظاً في فن المديح ، وبه ألصق ، إن عبّر فإنّما يُعبّر عن شعور تجاه فرد أو جماعة أو قبيلة ، ملك على الشّاعر إحساسه ، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لذلك الفرد أو تلك القبيلة ، بخاصّة إذا كان هذا الفرد من السّادة الكرام ، ينتمي إلى قبيلة عريقة ، تحلّق في سماء المجد والعزّ والشّرف والسّؤدد ، وكان هذا الشّاعر من أمثال زهير بن أبي سلمى ، لذا رأيت أن أدرس فلسفة المدح عنده في هذا البحث ، **الّذي قسمته إلى مبحثين** :

تناولت في الأوّل : مفهوم المدح لغة واصطلاحاً ، ونشأته ، والمدح في العصر الجاهليّ ، ونسب زهير وقبيلته ، وحياته ، ومكانته الشّعرية ، وأفضت في الآخر في معاني المدح عند زهير ، حيث الشّجاعة والكرم ، وعراقة الأصل ، والمجد والشّرف ، والحزم والوفاء ، وعلو الهّمة .

المبحث الأوّل

مفهوم المدح لغة :

المدح نقيض الهجاء وهو حُسْن الثّناء ، يُقال مَدَحْتُه مِدْحَةً واحدة ومَدَحَه يَمْدَحُه مَدْحاً ومِدْحَةً، هذا قول بعضهم ، والصّحيح أنّ المَدْحَ المصدر والمدْحَة الاسم والجمع مَدْحٌ ، وهو المديحُ والجمع المدائح ، الأخيرة علي غير قياس ، ونظيره حديث ، وأحاديث ، قال أبو ذؤيب :

لَو أنّ مِدْحَةَ حَيٍّ أَنْشَرَت أَحَداً أَحيا أُبُوَّتَكَ الشُمَّ الأَماديحُ

والمدائح جمع المديح من الشّعر الّذي مدح به كالمدحة والأمدوحة ، ورجل مادح من قوم مُدّح ومديح ممدوح ، وتمدّح الرّجل تكلّف أن يُمدح ، ورجل مُمدّح أي ممدوح جدّاً ، ومدح للمثنى لا غير ، ومدح الشّاعر وامتدح وتمدّح الرّجل بما ليس عنده تشبّع وافتخر ، ويُقال فلان يتمدّح إذا كان يقرظ نفسه ويُثني عليها ، والمادح ضد القابح [١] .

مفهوم المدح اصطلاحاً :

" المديح هو تعداد لجميل المزايا ووصف الشّمائل الكريمة وإظهار للتّقدير العظيم الّذي يكنّه الشّاعر لشخص توافرت فيه تلك المزايا وعُرف بمثل هاتيك الشّمائل " [٢] .

وهذا يعني أنّ ثمّة تناغم جلّي بين المعنى اللّغوي والمعنى الاصطلاحي ، فالمدح ما هو إلا ثناء حسن ، وذكر للمناقب ، وتمجيد للبطولة ، والتّغنّي بالأفعال المجيدة ، فهو مدرسة أخلاقية – إن صحّ التّعبير – يتعلّم فيها المرء الشّجاعة والكرم والإباء والأنفة ، وحبّ المجد ، والطّموح إلى المعالي ، والعدل والحلم والمروءة ، إذ يسعى الشّعراء إلى بلورة هذه المثل العليا ، فيُعجب بها المرء ويحاول الإيمان بها من أجل بلوغ مراتب الشّرف والمجد والسّيادة .

---

1 – يُنظر ، ابن منظور ، لسان العرب ٣ / ٤٢٦ ، و الفيروز أبادي ،القاموس المحيط ١ / ٢٨٤ .

2 –أحمد أبو حاقة ، فن المديح وتطوّره في الشّعر العربي ، ص ٥ .

معاني المدح :

جاء في " نقد الشّعر " ، و" العمدة " أنّ الفضائل الّتي يمتدح بها أربع : العقل والشّجاعة والعدل والعفّة (١) ، فالقاصد لمدح الرّجال بهذه الأربع يكون مُصيباً ، والمادح بغيرها يكون مخطئاً ، وقد يجوز للشّاعر أن يقصد منها بالبعض دون البعض ، فلا يُسمّى مخطئاً لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، لكن يُسمّى مقصّراً في استعمال جميع المدح (٢) .

وقد ذكر قدامة أنّ الشّعراء تفنّنوا في المديح بأن يصفوا خُلق الإنسان ويعدّدوا أنواع هذه الصّفات الأربع ، وأقسامها ، وأصناف تركيب بعضها مع بعض ، وما أقل من يشعر بأنّ ذلك داخل فيها الإفراد ، أو التّركيب إلا أهل الفهم ، ثم ذكر أقسام هذه الفضائل (٣) .

وقد ذكر الشّعراء هذه الأقسام أو التّركيبات في أشعارهم وهي جامعة لمكارم الأخلاق ومنهم زهير بن أبي سلمى الذي أجاد في غير قصيدة .

نشأته :

لم يكن فن المديح ظاهرة وليدة الأمس القريب ، ولا هو مقتصر على جيل دون آخر ، فالإعجاب بالخير من الصّفات ، والفاضل من الأعمال ، والعظيم من الرّجال ، خاصّة إنسانية وُجدت لدى جميع الشّعوب في مختلف العصور ، بل إنّها تُوجد في قرارة كلّ نفس إنسانية مهما تباينت نزعاتها ، وافترقت أساليب عيشها ونُظمها ، ومُثُلها العليا وغايتها في الوجود .

يعني ذلك أنّ هذا الفن من أقدم الفنون الأدبية ، عرفه البدائيون يوم تغنّوا بأمجاد آلهتهم ، ويوم وضعوا أنفسهم تحت وصاية زعمائهم وأبطالهم وامتدحوا هؤلاء الأبطال ، وأثنوا على بطولاتهم ، وأفعالهم المجيدة ، وعرفه المتحضّرون ، فامتدحوا الملوك والأمراء والعظماء من أهل الشّرف والمكانة العليا ، كما امتدحوا

---

1 - يُنظر ، قدامة بن جعفر ، نقد الشّعر ، ص ٨٤ .   ابن رشيق ، العمدة ٢ / ١١٣ .

2 - يُنظر ، نقد الشعر ، ص ٨٤ .

3 - يُنظر ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

العلماء والمفكّرين والمبدعين ، لأهداف متباينة وغايات متعدّدة ، إمّا إعجاباً وتقديراً مجرّداً بما هو جدير بالإكبار والتّقدير ، وإما سعياً وراء مكسب ، وتقرّباً وطلباً للرّفعة (١) .

وأغلب الظّنّ أنّ أمّة من الأمم لم تجهل هذا الفن الأدبي لا في القديم ولا في الحديث ، وإن اختلفت الأساليب وتباينت الغايات .

والجدير بالذّكر أنّ شعر المديح ينضوي أكثر ما ينضوي تحت الغنائية ، وإن كان هنالك مجالات لا تمنع من أن يتّخذ القالب التّمثيلي ، أو القالب الملحمي ، لأنّه في أساسه قائم على مشاعر ذاتية ، وعلى مواقف تتأثّر بعواطف الفرد وميوله ، وتصوّر انفعالاته .

والمديح " بحكم طبيعته ،وبكونه يُلقى على مسامع الممدوحين ، وإليهم يتوجّه بالخطاب ، لابُدّ أن يعتمد ، كما تعتمد أغراض الشّعر الغنائي كلّها على العناية بالتّعبير ، وصقل الألفاظ ، وحسن اختيارها ، والحرص على تآلفها ، وتوفير الانسجام بين النّغمات الّتي تصّاعد منها ، وإقامة التّكافؤ والتّوافق بين ما يذهب إليه الشّاعر من ناحٍ ، وما يصدر عنه من ناحٍ ثانٍ ، وما يُرضي الممدوح من ناحٍ ثالثٍ ، ويُرضي الذّوق والآداب العامّة من ناحٍ رابعٍ " (٢) .

ومن النّافلة القول أنّ شعر المديح من أكثر الأغراض الغنائية تطلّباً لقصر النّفس وانصباب الحسّ والشّعور ، والدّفق العاطفي في أبيات قليلة ، وقد وعى الشّاعر وعياً كاملاً ما يقول ، نظراً لضيق الوقت لدى الممدوحين وإلى سرعة مللهم وسآمتهم ، إذا طال عليهم القول ولو كان فيه من الجودة شيء كثير (٣) ، فالممدوح قد تكفيه أبيات قليلة يلمع في ثناياها الإيجاز ، وعذوبة الأسلوب وقوّة التأثير ، بخاصّة إذا كان الممدوح أهلاً لهذا المدح .

1 – يُنظر ، أحمد أبو حاقة ، فن المديح وتطوره في الشّعر العربي ، ص ٥ – ٧ .

2 – أحمد أبو حاقة ، فن المديح ، ص ٨ .

3 – يُنظر ، المرجع نفسه ، ص ٨ .

المدح في العصر الجاهليّ :

يعد المدح في عصر ما قبل الإسلام من أقدم الموضوعات ، وواحداً من الفنون الشّعرية البارزة ، من غير أن يطغى على سائر الفنون ، فقد أثنى الشّعراء على مناقب قبائلهم وساداتها ، وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة الّتي يجدون فيها كرم الجوار والعزّة والإباء والشّجاعة والكرم [١] ، ويذكرون مناقب السّادة ، حيث : الشّجاعة والإقدام ، والحزم والعزم ، والحلم ورجاحة العقل ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، فهو ضرب من الفخر ، يعبّر الشّاعر غالباً عن مشاعره بكلّ صدق وموضوعية .

وقد يكون المدح خدمة للقبيلة ، وخير مثال على ذلك ما فعله دريد بن الصّمّة سيد جشم بن بكر ، وفارسهم ، إذ مدح قوماً أغاروا على قومه ، فحملهم على ردّ السّبايا وفك الأسرى ، وردّ الأموال بعد أن عجز عن ردّها بالقوّة [٢] .

ومن المديح الجاهلي ، ما نُظم في تمجيد الأحلاف ، حفاظاً على قوّة القبيلة المتحالفة ، وتهديداً لأعدائها ، وقد يوجّه المديح إلى ملك ، أو زعيم ، رجاء اكتسابه في جانب قبيلة الشّاعر ، أو رجاء الإفراج عن جماعة من قبيلته قُبض عليهم لذنب اقترفوه ، فكان المديح شفاعة لهم [٣] .

وكان بعض السّادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل ، فكان بعض الشّعراء يمدحونهم اعترافاً بمكرماتهم وشكراً لصنيعهم ، كأن يفتكّوا أسيراً ، على نحو ما فعل خالد بن أنمار بن أخت المثّقب العبدي فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها :

مُتْرَعُ الجَفنَةِ رِبعِيُّ النَدى ... حَسَنٌ مَجلِسُهُ غَيرُ لُطَم [٤]

---

1 – يُنظر ، على سبيل المثال المفضليات ، ص ٥٦ – ٩٨ ، ٩٩ – ١٠٥ – ٢٥٤ – ٥٨٠ – ٥٩٦ – ٧٥٠ .

2 – يُنظر ، أحمد أبو حاقة ، فن المدح ، ص ٥٩ وما بعدها ، ويُنظر الخبر والأبيات في الأغاني ١٠ / ٣٧ – ٣٨ .

3 – يُنظر ، أحمد أبو حاقة ، فن المدح ، ص ٥١ وما بعدها .

4 – المفضليات ، ص ٥٩٢ .

والجدير بالذّكر أنّ قضية التّكسب بالمدح في هذا العصر شغلت النّقاد والدّارسين قديماً وحديثاً ، فهل اتّخذ شعراء هذا العصر المدح وسيلة إلى التّكسّب ؟

أغلب الظّنّ أنّ كثيراً من الشّعراء مدحوا ساداتهم وكبراءهم لجميل صنعوه ، أو معروف أسدوه ، كما هو واضح في مثالنا السّابق ، والسّادة في هذا العصر كُثْرٌ ، ومآثرهم متعدّدة ، وقيمهم متنوعة ، وبطولاتهم نادرة ، فلا عجب أن ينبري شاعر القبيلة مادحاً ، معتزّاً معترفاً بهذه المناقب ، مفتخراً بها ، فهو جزء منهم ، وهو لسان حال قبيلته ، والنّاطق الرّسمي باسمها ووسيلتها الإعلامية ، و ربما ينال الشّاعر نصيباً من مال هؤلاء السّادة –كما سنبين إن شاء الله – في تناولنا للمدح عند زهير ، ولكن علينا أن نتوخّى الدّقة والحذر عندما نسلّم بذلك ، إذ إنّ الشّاعر لم يَسْعَ إلى ذلك ولم يمدح إلاّ من أجل المدح ، وقد يكون هذا الإغداق ضرباً من كرم هؤلاء السّادة .

وقد رأى أحمد أبو حاقّة أنّ ظهور التّكسب بالمدح منذ الجاهلية ، فقد عرفه زهير بن أبي سلمى ، والمتلمس ، وطرفة بن العبد ، والمنخل اليشكري ، والحطيأة ، ومن لفّ لفيفهم ، ولكنّ هؤلاء كانوا بمجملهم على شيء من عفّة النّفس ، يغلب على طباعهم الأنفة من السّؤال ، وقلة التّعرض لما في أيدي النّاس [١] .

ومن النّافلة القول أنّ الوضع قد يختلف عندما يسعى الشّاعر إلى مدح غير السّادة العرب من ملوك المناذرة والغساسنة ، ولعلّ ذلك ما دفع د . شوقي ضيف – رحمه الله – إلى القول بأنّ الشّعراء اتخّذوا المدح وسيلة إلى الكسب في أواخر العصر الجاهليّ ، فهؤلاء قدموا إلى هؤلاء السّادة لنيل جوائزهم وعطاياهم الجزلة ، وقد اشتهر بذلك : زهير بن أبي سلمى ، النّابغة الذبياني ، وحسّان بن ثابت ، وقد اختصّ زهير بأشراف قومه ، وحسّان بالغساسنة ، والنّابغة اختصّ بالنّعمان بن المنذر [٢] .

ذكر ابن رشيق أنّ أوّل المتكسّبين بالشّعر النّابغة الذّبياني ، وقد خضع للنّعمان بن المنذر وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، أو من سار

---

[1] – يُنظر ، فن المدح ، ص ٤٠ – ٤١ .

[2] – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢١١ .

إليه من ملوك الغساسنة ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالاً وفيراً حتّى كان أكله وشربه في صحاف الذّهب والفضة (١).

غير أنّ أحمد أبو حاقة رأى أنّ الشعراء قبل النّابغة عاشوا في كنف الملوك ، ولكنّه يعد واحداً من شيوخ الشّعراء الذين كان يُقتدى بهم في هذا المجال ، فقد مهّد للنّاشئين من أهل الشّعر سبيل التّكسب بعد أن اختطّه قوم من الأقدمين ، وأكبر الظّنّ أنّ عظمة النّابغة هي التي جعلت النّقاد يلقون على عاتقه تبعة الانحراف بالشّعر نحو التّكسب (٢) ، مع أنّه قد يكون مجبراً على ذلك ، لأنّ مديحه اختلط بالاعتذار ، وكان مدحاً سياسياً من أجل قومه .

كما ذهب أبو حاقّة – وقد أفاض في ذلك – أنّ المديح المكتسب جاء في الجاهلية نتيجة لتطوّر أصاب المجتمع ، وعلاقة الفرد بالآخرين في داخل القبيلة وخارجها (٣) .

وأضاف د . ضيف بأنّ المناذرة ربّما اتّخذوا ذلك وسيلة للدّعاية لهم في القبائل ، فكَثُر الشّعراء حولهم ، وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال : المثقّب العبديّ ، الّذي لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، وممن رحل إليه الملتمس ، و الممزّق العبدي ، وطرفه بن العبد ، والمسيّب بن علس ، وكان النّعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء (٤) ، وانتهى هذا الفن إلى الأعشى ، فأصبح حرفة خالصة للتّكسّب إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلاّ وقصده ومدحه من أجل العطاء (٥) .

---

1 – يُنظر ، ابن رشيق ، العمدة ١ / ٧٠ .

2 – يُنظر ، فن المدح ، ص ٤١ .

3 – فن المديح ، ص ٥٢ ، وما بعدها .

4 – من بديع ما نُظم من قول حجر بن خالد :

سمعتُ بِفعْلِ الفاعلين فلم أجدْ ... كفعْلِ أبي قابوسَ حَزْماً ونائلا
يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كلِّ بلدةٍ ... إليك فأضحى حَوْلَ بيتِك نَازلا

يُنظر ، الجاحظ ، الحيوان ٣ / ٥٨ .

5 – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢١١ – ٢١٢ ، و أحمد أبو حاقة ، فن المديح ص ٥٢ وما بعدها ، و د. سيد حنفي حسنين ، الشّعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنيّة " دراسة نصية " ، ص ١٠٢ .

ولعلّ ذلك ما دفع ابن قتيبة الّذي ذهب إلى أنّ الشّاعر الجاهليّ كان يستهل قصيدته بالوقوف على الأطلال وبكاء الدّيار ووصف الرّحلة في الصّحراء وما يعانيه من متاعب وما يلاقيه من مكاره ، ثم يبدأ المدح ويهزّ ممدوحه للسّماح ويبعثه على المكافأة [١] .

أغلب الظّن أنّه يقصد بعض الشّعراء ، يؤكّد على ذلك د . يحيى الجبوري الّذي ذهب إلى أنّ رأي ابن قتيبة يصدق على الشّعر الأموي ، الّذي صار فيه الشّعر وسيلة للارتزاق ، أمّا الشّعر الجاهليّ فلم يُظن فيه من الّذين سألوا الشّعر أو مدحوا تكسّباً ، غير الحطيأة والأعشى ، واستثنى النّابغة الّذي ظنّ أنّ مديحه للملوك كان سياسياً في سبيل قومه ، وأضاف أنّ القصائد الجاهلية الطّويلة الّتي أُستهلت بمقدّمات طللية وغزلية لم تتّصل أكثرها بالمدح ، فقد كانت فخراً وهجاءً ووصفاً وعتاباً واعتذاراً ، وحتّى المديح الجاهليّ كان مديحاً للقبيلة وهو ضرب من الفخر ، وما كانت غاية الشّاعر أن يهزّ السّامعين للعطاء بل ما كانت غايته أن يُرضي السّامعين بقدر ما كان هدفه التّعبير عن خلجات نفسه وتصوير عواطفه ومشاعره [٢] .

لا شكّ أنّ هذا الرأي يصدق على مَنْ مدح سادات قومه ، لا على الّذين تجشّموا وعثاء السّفر من أجل الوصول إلى الملوك ومدحهم من أجل الكسب والعطاء ، لذا نرى أنّ كثيراً من المدح الجاهليّ بخاصّة في أوائل هذا العصر لم يكن من أجل المكافأة ، بل من أجل الإشادة بالبطولات والمآثر ، والاعتزاز بها ، مما يؤكّد أنّ هذا المديح كان ضرباً من الفخر ، يُعبّر عنه بكل صدق وموضوعية ، وأنّ قلة من الشّعراء مدحوا من أجل الكسب ، بخاصّة في أواخر هذا العصر .

لعل الهدف من الحديث عن حياة زهير ومكانته الشّعرية يتمثّل في إلقاء الضّوء على كثير من القضايا الّتي تخدم البحث وتقوي الحجة ، وتوصل إلى نتائج موضوعية.

---

1 – يُنظر ، ابن قتيبة ، الشّعر والشّعراء ، ١ / ٧٤ – ٧٥ .

2 – يُنظر ، د . يحيى الجبوري ، الشّعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ص ١٤٩ .

نسبه وقبيلته :

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني ، فأبوه من قبيلة مُزَيْنَة [١]، غير أنّ ابن قتيبة يرى أنّه ينسب إلى غطفان [٢] ، وقد كانت قبيلته مزينة تجاور تلك القبيلة ، وقد تزوج أبو سلمى من غطفان وأنجب أولاداً ، وقد تزوّج زهير من أخواله من غطفان [٣] .

وقد كان ذلك سبباً في أن يضطرب الرّواة وأن يَظن بعضهم أنه غطفاني القبيلة ، وهو في الحقيقة مزني النسب غطفاني النشأة والمربى ، وقد صرّح ابنه كعب بهذا النسب ، إذ قال ردّاً على مُزَرِّ بن ضرار وقد عزاه إلى مزينة :

هُمُ الأَصلُ مِنّي حَيثُ كُنتُ وَإِنَّني   مِنَ المُزنِيّينَ المُصَفّينَ بِالكَرَمِ [٤]

لعل اختلاط أسرة الشاعر بغطفان في الإقامة والزواج هو الّذي صرفه وصرف بنيه من بعده عن التّفاخر بمزنية ، بل إنّ أشعارهم تشتمل على مآثر مرّة وغطفان ، فزهير يمدح ساداتهم وفرسانهم ، وقد كان والده هجر قبيلة واجداً عليها ، وأقام في غطفان متزوّجاً منهم ، فنشأ الابن فيهم تعطفه الخؤولة من ذبيان ، ولا تهزّه العمومة من مزينة ، فعاش بينهم وأصهر إليهم وخصّ شعره بهم [٥] ، فمعظم مدحه لسادة غطفان .

حياته :

عاش زهير في منازل بني عبد الله بن غطفان وأخواله من بني مرّة الذّبيانيين ، في كنف خاله بَشامة بن الغدير ، الّذي كان شاعراً مجيداً ، كما كان سيداً شريفاً ثرياً [٦] .

---

1 - يُنظر ، الأغاني ، ١٠ / ٢٩٨ ، و طبقات فحول الشعراء ، ص ٨٨ .

2 - يُنظر ، الشعر والشعراء ١ / ٢٣١ .

3 - يُنظر ، الأغاني ، ١٠ / ٣١٧ .

4 - طبقات فحول الشعراء ، ص ٨٨ .

5 - مقدّمة ديوان زهير ، ص ٥ – ٦ .

6 - يُنظر ، طبقات فحول الشعراء ، ص ٥٦٣ .

وكان بشامة من أحزم النّاس رأياً ، فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه ، ولم يكن له ولد ، فلما حضرته الوفاة جعل يقسّم ماله في أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه ، ويُروى أنه قال إنّي أعطيتك ما هو أفضل من المال ، فقال زهير : ما هو؟ فقال له : شعري [١] ، فقد ورث زهير الشاعرية والمال والخُلق الكريم من خاله .

والجدير بالذّكر أنّه تحدّث في شعره عن حروب داحس والغبراء ، مشيداً بهرم بن سنان ، والحارث بن عوف سيدي بني مرّة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد في تلك الحروب ، إذ تحمّلا ديات القتلى ، ويُقال إنّها ثلاثة آلاف بعير أدّيا في ثلاث سنوات [٢] ، وقد اعتدّ زهير بهذه المنّة العظيمة فأشاد بها في معلقته ، وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجّده ، وهرم يُغدق عليه [٣] .

ومن طريف ما يُروى في هذا الصّدد أنّ هرماً " حلف أن لا يمدحه زهير إلاّ أعطاه ولا يسأله إلاّ أعطاه ولا يُسلّم عليه إلاّ أعطاه : عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملأ قال : عمّوا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت " [٤] .

وفي ذلك دلالة على أنّ الرّجل لم يُطلب العطاء عندما يمدح ، وإن أخذه ، وقد كان " سيّداً كثير المال ، حليماً ، معروفاً بالورع " [٥] .

وذكر صاحب العمدة أنّ تكسّب زهير بالشّعر كان يسيراً مع هرم بن سنان [٦] ، وذُكر في رواية أخرى أنّ هرماً كان يجزل له العطاء [٧] .

---

1 – الأغاني ١٠ / ٣٢٠ .

2 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣٠٦ .

3 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣٠٦ .

4 – الأغاني ١٠ / ٣١٣ .

5 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣١٨ .

6 – يُنظر ، العمدة ١ / ٧٠ .

7 – يُنظر ، العمدة ١ / ٧١ . الأغاني ١٠ / ٣١٣ .

وثمة دليل آخر على أنّه عاش في بحبوحة من العيش ما ذكره صاحب الأغاني أنّ الحارث بن ورقاء الأسدي أغار في جماعة من قومه على عشيرته ، وقد أخذ فيما أخذ إبلاً وغلاماً لزهير يُسّمى يساراً ، ثمّ ردّها إليه (١).

هذا يعني أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يُقدّم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال .

وقد كان زهير فيه نبل ووقار ، ولعلّ ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش ، وهنا يُطرح سؤال ، هل كان الرّجل يدين بالحنفية ؛ أم كان وثنياً مثل قومه ؟

ذُكر أنّ ذبيان وغيرها من قبائل غطفان كانت تتعبّد في الجاهلية العُزّى (٢) ، وهذا يعني أنّهم وثنيون ، وقد ظلّوا على وثنيتهم إلى ظهور الدّين الحنيف ، ولكن عندما نتصفّح معلّقة شاعرنا نلاحظ بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول في معلقته :

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم ... لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر ... لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ (٣)

إذا صحّت نسبته البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنّه أحد من تحنّفوا في الجاهلية وشكّوا في دينهم الوثني (٤) ، غير أنّ د . شوقي ضيف يرى في أغلب الظّن أنّه لم يفارق دين قومه ، إنّما هي خطرات كانت تمّر به (٥).

إذا سلّمنا بأنّ هذه خطرات كانت تمرّ به ، فإنّ هذه الخطرات لا تصدر إلا عن حكيم ، وزهير شاعر الحكمة والسّلام ، ونعتقد أنّ ثمة انسجاماً بين البيتين السّابقين وباقي أبيات الحكمة في معلقته قد يوحي بصحة البيتين له ، ولكن هذا لا يُعطي دليلاً قاطعاً ، لأنّ المصادر لم تؤكّد ذلك ، لذا لا نجزم بأنّه كان يدين بالحنفية

---

1 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣١٥ .

2 – يُنظر ، د . جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ / ٩٧ وما بعدها .

3 – الزّوزني ، شرح المعلّقات السّبع ص ١٠٦

4 – يُنظر ، ابن حبيب ، المحبّر ، ص ٢٣٨ ، حيث يذكر أنّه كان ممن حرّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسّكر والأزلام .

5 – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٣٠٣ .

، ولكن على أقل تقدير قد يكون تأثّر بمن تحنّفوا ، وظلّ على وثنيّتة ، وربما كـــان حنفياً كما ذهب ابن حبيب .

وما يهمنا أنّ زهيراً كان حكيماً ، نبيلاً ، وقوراً ، لذا أثّر ذلك في شـــعره ، فكان لا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه .

مكانته الشّعرية :

هو أحد الثّلاثة المقدّمين على سائر الشّعراء في الجاهلية ، وإنّما أُختلف فـــي تقديم الثّلاثة أيهم على صاحبه ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة [1] .

وقد عدّه ابن سلاّم من شعراء الطّبقة الأولى ، وذهب إلى أنّ أهل الحجـــاز والبادية كانوا يقدّمون زهيراً والنّابغة ، فقد كان أحكمهم شعراً وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح ، وأخبر أبو قيس العنبري أنّه لم يرَ بدوياً يزيد عليه ، وعن مكرمة بن جرير قال : " قلت لأبـــي أبه : من أشعر النّاس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألني أم الإسلام ؟ قلت: مـــا أردت إلاّ الإسلام ، فإذا قد ذكرت الجاهلية ، فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم" [2] .

وذكر صاحب الأغاني أنّ أبا خليفة أخبره عن محمّد بن سلاّم قال " مـــن قـــدّم زهيراً احتجّ بأنّه كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم عن سُخفٍ ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ ، وأشدّهم مبالغة في المدح وأكثرهم أمثالاً في شعره " [3] .

وذكر أيضاً أنّ ابن عباس التقى ذات ليلة بعمر بن الخطّاب ، فقال له : " هل تروي لشّاعر الشّعراء ؟ قلت : ومن هو ؟ قال : الّذي يقول :

فَلَو كانَ حَمدٌ يُخلِدُ النّاسَ لَم تَمُت　　　وَلَكِنَّ حَمدَ النّاسِ لَيسَ بِمُخلِدِ

قلت : ذاك زهير ، قال : فذاك شاعر الشّعراء ، قلت : وبِـمَ كــان شـــاعر الشّعراء ؟ قال : لأنّه لا يعاضل في الكلام ، يتجنّب وحشي الشّعر ، ولم يمدح أحداً إلاّ بما فيه " [1] .

---

1 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٢٩٨ .

2 – طبقات فحول الشّعراء ، ص ٤٠ – ٤٤ .

3 – الأغاني ١٠ / ٣٢٢ .

وكان قدامة بن موسى – وهو من أهل العلم – يقدّم زهيراً لأنّه أُعجب بقوله في مدح هرم بن سنان :

قَد جَعَلَ المُبتَغونَ الخَيرَ في هَرِمٍ   وَالسائِلونَ إِلى أَبوابِهِ طُرُقا (٢).

وذكر أيضاً صاحب الأغاني أنّ معاوية سأل الأحنف بن قيس عن أشعر الشّعراء ، فقال زهير ، قال : وكيف ؟ قال : ألقى عن المادحين فضول الكلام ، قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله :

فَما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فَإِنَّما   تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ (٣)

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه فيما يُقال شاعراً ، وكان خاله بشامة بن الغدير الغطفاني شاعراً ، وأخته الخنساء شاعرة ، وكان ابناه كعب وبجير شاعرين (٤) ، وكان حفيده عقبة بن كعب شاعراً ، كما كان زهير راوية أوس بن حجر ، كما كان يروى شعر طفيل الغنوي (٥) ، وقد كان يروى شعر خاله بشامة بن الغدير (٦) ، وأخذ الحطيأة عن زهير ، وأخذ جميل عن الحطيأة ، وأخذ كُثير عن جميل ، فسلسلة الشعر متصلة بزهير من قبل النسب – إذا استثنيا طفيل – كما هي متّصلة به من قبل التعليم والرواية ، وكأننا بإزاء شاعر اتّصل الشّعر في بيئته اتصالاً لم يُعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه (٧).

فقد عاش للشّعر يرويه ويعلّمه ، فنحن إزاء مدرسة يتّضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيأة ، وأستاذه الحقيقي والأقرب الذي تأثّر به في شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم أوس بن حجر زوج أمّه (٨).

---

1 – الأغاني ، ١٠ / ٢٩٨ – ٢٩٩ ، و يُنظر ، العمدة ١ / ٨٥

2 – الأغاني ١٠ / ٢٩٩ .

3 – الأغاني ١٠ / ٣٠٠ .

4 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣٢٢ .

5 – يُنظر ، العمدة ١ / ١١٤ . وينظر ، الشّعر والشّعراء ١ / ٨٦ .

6 – يُنظر ، الأغاني ١٠ / ٣٢٠ .

7 – يُنظر ، مقدمة ديوان زهير ، ص ٨ .

8 – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، ص ٣٠٦ .

ولعلّ أظهر ما يتّصف به زهير عند الرّواة أنّه كان كالحطيأة من عبيد الشّعر ويعنون بهذا إنّه كان بطيئاً في قول الشّعر ، يروّي ويُنقّح ، ويعاود قوله بالصّقال والتّهذيب ، ويطيل التفتيش ويعيد فيه النّظر بعد النّظر حتّى يظهره النّاس ، ولذلك أُضيفت إليه قصة الحوليات ليظهروا رويته وأناته في تنقيح شعره ، فقالوا : إنّه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهذّبها في أربعة ، ويعرضها على أخصائه في أربعة وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيأة وأشباههما من الشّعراء عبيد الشّعر لأنّهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكان الحطيأة يقول : خير الشّعر المنقّح المحكك ، وكان زهير يسمّى كبرى قصائده الحوليات (١) .

وقد أثّر ذلك في معانيه وألفاظه ، فإذا ذُكرت معه الرّوية والرّزانة والحكمة ، فهو شاعر متّزن لا تنطوي حياته وطباعه على شذوذ غير مألوف في نظام الاجتماع ، وقد جاءت أقوال المتقدّمين فيه وصفاً لما يبدو من أخلاقه في شعره ، وتفصيلاً لهذا الشّعر بهذه الأخلاق ، ومنزلة شعره يستند إلى رجحان عقله وحبّه للخير والسّلام ، لا إلى جوهر الشّعر نفسه (٢) ، وقد استحقّ أن يُسمّى قاضي الشّعراء كما قال ابن رشيق من أجل بيت قاله :

وَإِنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ يَمينٌ أَو نِفارٌ أَو جلاءُ (٣)

فهو قاضٍ يصلح بين المخاصمين ، وشاعر حكيم ينصح النّاس ويرشدهم ويدعوهم إلى الرّشد والصّواب ، وخطيب اجتماعي .

المبحث الثّاني : المدح :

حرص زهير على تسجيل بعض مآثر سادات العرب الّذين كان لهم مكان مرموق في الحياة الجاهلية ، وأثر واضح في فصل مشكلات الحرب بين قبائلها ، يدفعه الوفاء الّذي طُبعت عليه نفسه ، واعتزازه بمفاخر قبيلته ومجدها ومآثرها ، وعمق علاقته بسادات قومه ، بخاصّة هرم بن سنان .

1 - يُنظر ، مقدمة ديوان زهير ، ص ٩ .

2 - يُنظر ، مقدمة ديوان زهير ، ص ٩ .

3 - العمدة ١ / ٤١ .

دبّج مدائحه بهؤلاء السّادة أمثال : سنان بن أبي الحارث ، وهرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، وحصن بن حذيفة بن بدر ، وأضفى حُلَلاً من المدح الصادق ، وخلع عليهم الخلال الحميدة ، والمآثر المجيدة حيث : الشّجاعة ، والكرم ، والحلم وعلو الهمّة ، بالإضافة إلى الشّرف ، والمجد ، وعراقة النسب ، وقبل أن نتعرّف على هذه المعاني نلقى الضّوء على أبيات من معلقته المشهورة لمعت بين مدائحه أشاد فيها بهرم بن سنان ، والحارث بن عوف حين سعيا بالصّلح بين قبيلتي عبس وذبيان ، وتحمّلا ديات القتلى حتّى تضع الحرب أوزارها ، فدرّا عليهما حسن الأحدوثة في القوم ، وزادهما شرفاً ورفعة ، يقول :

يَميناً لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما   عَلى كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ
تَدارَكتُما عَبساً وَذُبيانَ بَعدَما   تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ
وَقَد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِعاً   بِمالٍ وَمَعروفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ
فَأَصبَحتُما مِنها عَلى خَيرِ مَوطِنٍ   بَعيدَينِ فيها مِن عُقوقٍ وَمَأثَمِ
عَظيمَينِ في عُليا مَعَدٍّ وَغَيرِها   وَمَن يَستَبِح كَنزاً مِنَ المَجدِ يَعظُمِ (١)

ثم يعود ليلحّ في امتداح الرّجلين ، مظهراً ما لديهما من كرم ، وما هما عليه من حسن العريكة ، وعزة النّفس ، وحماية الجار ، ومساعدة كلّ محتاج ، وحبّ الحياة الصافية من كلّ كدر :

فَكُلّاً أَراهُم أَصبَحوا يَعقِلونَهُم   عُلالَةَ أَلفٍ بَعدَ أَلفٍ مُصَتَّمِ
لِحَيٍّ حِلالٍ يَعصِمُ الناسَ أَمرُهُم   إِذا طَلَعَت إِحدى اللَيالي بِمُعظَمِ
كِرامٍ فَلا ذو الوِترِ يُدرِكُ وِترَهُ   لَدَيهِم وَلا الجاني عَلَيهِم بِمُسلَمِ (٢)

مديح رزين رصين ساقه هذا الشّيخ الحكيم ، لم يُبالغ فيه ، ولم يتّجنَّ على الحقيقة ولا على الفضيلة ، وأغلب الظّن أنّه كان في هذا المديح ذا مآرب شخصية ،

1 - الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .   ديوانه ، ص ١١٠ .
2 - الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص ١١١ .   ديوانه ، ص ١١٤ .

فلم يتكسّب هذه المرّة وإن كان هرم قد أكرمه كثيراً [١] ، وهذا يعني أنّ مدحه كان في خدمة السّلام ، ورغبة في حقن الدّماء ، ودوام العلاقات حسنة بين الجميع .

معاني المدح :

أشاد زهير بأخلاق ممدوحيه ، الّذين تربّوا كغيرهم من العرب في عصر ما قبل الإسلام على القيم والمبادئ الأخلاقية ، الّتي آمنوا بها ، وأضحت عندهم طبعاً وسجيّة ، فقد أثنى على حُسن خُلق سنان بن أبي حارثة ، حيث يقول :

عَوَّدتَ قَومَكَ إِنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ　　مَهما يُعَوَّد شيمَةً يَتَعَوَّد
حَزماً وَبِرّاً لِلإِلَهِ وَشيمَةً　　تَعفو عَلى خُلُقِ المُسيءِ المُفسِدِ [٢]

وعلى خُلق ابنه هرم ، الذي كان واسع الخُلق ، حسن المخبر ، في مثل قوله :

وَإِذا بَرَزتَ بِهِ بَرَزتَ إِلى　　ضافي الخَليقَةِ طَيِّبِ الخُبرِ [٣]

كما أشاد بحسن خلقه في قصيدة أخرى ، حيث قال :

وَعَوَّدَت قَومَهُ هَرِمٌ عَلَيهِ　　وَمِن عاداتِهِ الخُلُقُ الكَريمُ
كَما قَد كانَ عَوَّدَهُم أَبوهُ　　إِذا أَزَمَتهُمُ يَوماً أَزومُ
كَبيرَةُ مَغرَمٍ أَن يَحمِلوها　　تُهِمُّ الناسَ أَو أَمرٌ عَظيمُ
لِيَنجوا مِن مَلامَتِها وَكانوا　　إِذا شَهِدوا العَظائِمَ لَم يُليموا
كَذَلِكَ خيمُهُم وَلِكُلِّ قَومٍ　　إِذا مَسَّتهُمُ الضَرّاءُ خيمُ [٤]

لا غرابة في ذلك ، فقد تعوّد على هذا الخُلق الكريم ، فقد ورثه من أبيه ، وسار على سنته وتأصّل في نفسه ، فهو حكيم ، قادر على الإصلاح بين

---

1 – يُنظر ، أحمد أبو حاقة ، فن المديح ، ص ٦٧ – ٦٨ .

2 – ديوانه ، ص ٤٦ . المبرز : السابق . الشيمة : الخلق . يتعود : من العادة .
بر للإله : عابد له تعفو : تزيد وتلبس وتغطي .

3 – ديوانه ، ص ٥٥ .

4 – ديوانه ، ص ١٢١ . أزمتهم أزوم : عضتهم داهية شديد .
كبيرة مغرم أن يحملوها : مردود على أزوم ، أي كبرت عليهم ، فلا يستطيعون حملها والقيام بها .
الخيم : الخلق والسجية .

المتخاصمين ، خُلقه وآباؤه أن يتحمّلوا الشّدائد والمصائب ، فإذا ما صَعُبَ على القوم حمل شيء يحملوه حتّى لا تصوّب إليهم سهام اللّوم والعتاب .

كما أثنى على حُسن خَلق هؤلاء السّادة ، ففي إطار مدحه لسنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف ، وصفهم بجمال الوجوه ، وجمال الكلام في مجالسهم ، هذه المجالس يُبتّ فيها الجميل من القول ، ويُعمل به ، في مثل قوله :

**وَفيهِم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُم		وَأَندِيَةٌ يَنتابُها القَولُ وَالفِعلُ** (١)

لقد أضفى زهير حللاً من المديح الرّائع على هؤلاء السّادة الكرام ، ووصف مكارم أخلاقهم ، وحسن تصرفاتهم ، وكريم خصالهم ، فمن هذه القيم أو من معاني المدح الّتي أثارها :

الشّجاعة :

أثنى زهير على سنان بن أبي الحارث ، مشيداً بقوته وشجاعته وحزمه عند منازلته الأشدّاء ، يقول :

**وَإِذا يُلاقي نَجدَةً مَعلومَةً		يَصلى الكُماةُ بِحَرِّها لَم يَبلُدِ**
**لَم يَلقَها إِلّا بِشِكَّةِ حازِمٍ		يَخشى الحَوادِثَ عازِمٍ مُستَعدِدِ**
**وَمُفاضَةٍ كَالنَهيِ تَنسُجُهُ الصَبا		بَيضاءَ كَفَّت فَضلَها بِمُهَنَّدِ**
**صَدقٍ إِذا ما هُزَّ أُرعِشَ مَتنُهُ		عَسَلانَ ذِئبِ الرَدهَةِ المُستَورِدِ** (٢)

وهو دائماً يقاتل أقرانه الفرسان ، ضرباً بالسّيف ، أو طعناً بالرّمح :

**فَما مُخدِرٌ وَردٌ عَلَيهِ مَهابَةٌ		يَصيدُ الرِجالَ كُلَّ يَومٍ يُنازِلُ**
**بِأَوشَكَ مِنهُ أَن يُساوِرَ قِرنَهُ		إِذا شالَ عَن خَفضِ العَوالي الأَسافِلُ**

---

[1] – ديوانه ، ص ٩٦.

المقامات : المجالس . والندى : المجلس جمعه أندية .

[2] – ديوانه ، ص ٤٦ . النجدة : الشدة والشجاعة . والكماة : الأشداء . لم يبلد : من البلاد وهي الضعف .

الشكة : السلاح أجمع . مستعددة : أراد مستعداً متهيأ فأظهر الإدغام .

المفاضة : الدرع الواسعة السابغة . والنهي : الغذير : وكفت فضلها : أي ضم فضلها بحمائل سيفه .

صدق : صلب شديد يعني السيف . متنه : وسطه . عسلان : اضطراب الردهة : النقرة فيها ماء في الجبل . المستورد الذي يرد الماء .

فَيَــدَءُهُ بِضَرْبَــةٍ أَو يَشُكُّــهُ بنافِــذَةٍ تَصفَــرُّ منــهُ الأَنامــلُ
أَبي لِابنِ سَلمى خَلَّتانِ اصطَفاهُما قِتــالٌ إِذا يَلقى العَــدُوَّ وَنائِــلُ (١)

لا يهرب ولا ينحرف عن الحرب ، وهو قوي غير عاجز ، لا يتّكل على غيره ولا خائف ، لأنّه يملك قلباً ثابتاً شجاعاً :

وَقَودُكَ للعَــدُوِّ الخَيــلَ قُبّاً مُسَوَّمَةً جَنابَكَ فَيلَقــانِ
وَلا أَوَدٌ إِذا ما القَومُ جَدّوا وَلا وَكَلٌ وَلا وَهِلُ الجَنانِ (٢)

وشهد لحبيبه الّذي كان يبرّه ، ويجزل له العطاء بالقوّة والشّجاعة ، فهو فارس مغوار ، يضرب الشّجعان بسيفه ، ويفكّ الأسرى ، أسد هصور ، يذود عن قومه بلسانه ويده ، يقول :

أَلَيسَ بِضَرّابِ الكُمــاةِ بِسَيفِهِ وَفَكّاكِ أَغلالِ الأَسيرِ المُقَيَّدِ
كَلَيثِ أَبي شِبلَينِ يَحمي عَرينَهُ إِذا هُوَ لاقى نَجدَةً لَم يُعَرِّدِ
وَمِدرَهُ حَربٍ حَميُها يُتَّقى بِهِ شَديدُ الرِجامِ بِاللِسانِ وَبِاليَدِ
وَثِقلٌ عَلى الأَعداءِ لا يَضعَونَهُ وَحَمّالُ أَثقالٍ وَمَأوى المُطَرَّدِ

وتتجلّى شجاعته عندما يلتقي الجمعان ، فترى الخصم القويّ مصفرّاً وجهه خوفاً وهلعاً منه ، فضلاً عن أنه يدرك ثأراً به ولا يستطيع خصمه أن يدرك الثّأر منه :

حَيثُ تُرى الخَيلُ بِالأَبطالِ عابِسَــةً يَنهَضــنَ بِالهُندُوانِيّــاتِ وَالجُنَنِ
حَتّى إِذا ما التَقى الجَمعانِ وَاختَلَفوا ضَرباً كَنَحتِ جُذوعِ النَخلِ بِالسَفَنِ
يُغادِرُ القِــرنَ مُصفَــرّاً أَنامِلُــهُ يَميلُ في الرُمحِ مَيلَ المائِــحِ الأَسِنِ

---

[1] – ديوانه ، ص ٨٦ – ٨٧ . المخدر : المستتر في خدره ، والخدر : الأجمة . الورد : الأسد . بأوشك : بأسرع . يساور : يواثب . القرن : الخصم ، من يقاومه في القتال . شال : ارتفع . العوالي ، الواحدة عالية : القسم الأعلى من الرمح . الأسافل ، الواحد أسفل : القسم الأسفل من الرمح . يبدؤه : يعالجه . النافذة : الطعنة الماضية . وقوله " تصفر منها الأنامل " أي تميته .

[2] – ديوانه ، ص ١٣٢ . القب ، الواحد أقب : وهو الضّامر الخاصرتين . المسوّمة : المعلّمة . الجناب : الناحية . الفيلقان ، مثنى فيلق : هو الكتيبة الضّخمة العدد والعدّة . الأود : المنحرف المنصرف ، والأود : الاعوجاج . الوكل : العاجز الذي يكل أمره إلى غيره . الوهل : الفزع أو الغافل . الجنان : القلب .

يَطلُبُ بِالوِترِ أَقواماً فَيُدرِكُهُم   حيناً وَلا يُدرِكُ الأَعداءُ بِالدِمَنِ (١)

وأشاد بشدة بأسه في أبيات أخرى ، حيث قال :

حامي الذِمارِ عَلى مُحافَظَةِ ال   جُلّى أَمينُ مُغَيَّبِ الصَدرِ
جَلدٍ يَحُثُّ عَلى الجَميعِ إِذا   كَرِهَ الظَنونُ جَوامِعَ الأَمرِ
فَلَأَنتَ تَفري ما خَلَقتَ وَبَعضُ   القَومِ يَخلُقُ ثُمَّ لا يَفري
وَلَأَنتَ أَشجَعُ حينَ تَتَّجِهُ ال   أَبطالُ مِن لَيثٍ أَبي أَجرِ
وَردٍ عُراضِ الساعِدَينِ حَديدِ   النابِ بَينَ ضَراغِمٍ غُثرِ
أُثني عَلَيكَ بِما عَلِمتُ وَما   سَلَّفتَ في النَجَداتِ وَالذِكرِ
لَو كُنتَ مِن شَيءٍ سِوى بَشَرٍ   كُنتَ المُنَوِّرَ لَيلَةَ البَدرِ (٢)

عزيمته قوية ، قادر على حثّ القبيلة على التآلف ، إذا تهيّأ لأمر مضى له وأنفذه ، ضرغام يواجه الأبطال وجهاً لوجه بكلّ قوّة ، وشجاعة ، وصدق ، يقول في أبيات أخرى مصوّراً شجاعته المفرطة لدرجة أنّه يتفوّق على اللّيث في جرأته وطلبه للفريسة :

---

[1] – ديوانه ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

الجنن ، الواحد جنة : الترس والدرع ، وكل ماستترت به فهو جُنة . السفن : الفأس العظيمة يُقشر بها .

القرن : من يقاومه في الحرب. المائح : الذي يترل إلى أسفل البئر ليملأ الدلو . الأسن : الذي يغشى عليه من ريح البئر .

العنن ، الواحدة عُنّة : وهي حظيرة من شجر تعمل حول البيت لترد الريح عنه .

المعترك : موضع الازدحام . خبّ : جرى ومرّ على وجه الأرض . السفير : ماأنحت من ورق الشجر وتناثر . السبطن : النهم ، أو الذي لزق ظهره ببطنه جوعاً وإنما سمي الورق سفيراً لأن الريح تسفره أي تكنسه .

ويروى " شحم السديف " وهو قطع السنام ، وشحم النصيب من الشحم . وقوله " لا يذاب له " أي يطعمه الناس طرياً .

الوتر : الثأر . الدمن : الأحقاد ، الواحدة دمنة .

[2] – ديوانه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

الجلى : جماعة العشيرة وقيل الخصلة العظيمة وقيل البلية لبنازلة . مغيب الصدر : مؤتمن على ما يغيب في صدره ويضمره إلاّ الوفاء .

الجلد القوي العزم . يحث على الجميع : أي يدعو عشيرته إلى التآلف . الظنون : الذي لا يوثق بما عنده لما علم من قلة خيره . والظنون : البئر القليلة الماء التي لا يوثق بها . ما خلقت : أي ما قدرت وهيأت للقطع .

الورد : الأحمر اللون . العراض : الواسع . الغثر : الغبر اللون . وضراغم جمع ضرغامة وهو من نعت الأسد .

النجدات ، الواحدة نجدة : الشدة والبأس .

لَيثٌ بعَثّرَ يَصطـــادُ الرجـــالَ إذا ما كَذَّبَ اللَيثُ عَن أَقرانِه صَدَقا
يَطعَنُهُم ما ارتَمَوا حتّى إذا اطَّعَنوا ضارَبَ حتّى إذا ما ضارَبوا اعتَنَقا (١)

وهمّته عالية تعدل حيّ بكامله :

هَذا وَلَيسَ كَمَن يَعيا بخُطَّته وَسطَ النَديِّ إذا ما ناطقٌ نَطَقا
لَو نالَ حَيٌّ مِنَ الدُنيا بِمَنزِلَةٍ أُفقَ السَماءِ لَنالَت كَفُّهُ الأُفُقا (٢)

لا شكّ أنّه أبدع في تصوير شجاعة ممدوحه المفرطة وعلو همّته ، وقد أحسّ بأنّه كاد أن يخرج عن الحدّ بما يجعل قوله مقبولاً ، فلم يطلق القول إطلاقاً ، فقدّم " لو " ، أو جعل المعنى في حيّز " لو " ؛ حتّى يخرج من باب المبالغة الّذي أوشك على الدّخول فيه (٣) ، فهو إذا وقع له شيء من الغلو جعل الشّرط له مانعاً ، (فلو) الشّرطية أبعدته عن السّخف والكذب وأبقته في حدود صدقه ورصانته (٤) .

وأثنى زهير على شجاعة قبيلة غطفان في القصيدة التي مدح فيها سنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف ، حيث قال :

إذا فَزِعوا طاروا إلى مُستَغيثِهِــمْ طِوالَ الرِّماحِ لا ضِعافٌ وَلا عُزلُ
بِخَيـــلٍ عَلَيهـــا جِنَّةٌ عَبقَرِيَّــةٌ جَديرونَ يَوْماً أن يَنالوا فَيستَعْلوا
وَإن يُقتَلـــوا فَيُشتَفى بِدمائِهِـــم وَكانُوا قَديماً مِنْ مَنايَاهُمُ القَتــلُ
عَلَيها أُسودٌ ضارياتٌ لَبوسُهُــم سَوابِغُ بيضٌ لا تُخَرِّقُهـــا النَبــلُ
إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِــرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناسَ أَنيابُهـــا عُصُلُ
قُضاعِيَّـــةٌ أَو أُختُهـــا مُضَرِيَّـــةٌ يُحَرَّقُ في حافاتِها الحَطَبُ الجَزلُ
تَجِدهُم عَلى ما خَيَّلَت هُم إزائَها وَإن أَفسَدَ المالَ الجَماعاتُ وَالأَزلُ
يَحُشّونَها بِالمَشرَفِيَّـــةِ وَالقَنــا وَفِتيانِ صِدقٍ لا ضِعافٌ وَلا نُكلُ (٥)

---

1 – ديوانه ، ص ٧٩ . عثر : موضع معروف بكثرة الأسود . كذّب : لم يصدق الحملة .

2 – ديوانه ، ص ٧٩ .

3 – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٣١٣ – ٣١٤ .

4 – يُنظر ، مقدّمة ديوانه ، ص ١٢ .

5 – ديوانه ، ص ٩٣ – ٩٤ . السوابغ : الدروع الكاملة .

إغاثة الملهوف على جناح السّرعة مظهر من شجاعة هؤلاء الأسود الضّارية المدجّجين بالسّلاح ، الّذين يمتطون صهوات خيول أصلية ، يخوضون غمار المعارك ، ويشعلون أوارها بكل قوّة واقتدار وصدق ، فهم أهل حرب أشراف يموتون تحت ظلال السّيوف ، لا حتف أنوفهم ، لذا يرضى القاتل بهم ويُشفي نفسه بدمائهم ، ويرى أنّ أدرك دمه .

وفي قصيدة أخرى في إطار مدحه لهرم بن سنان أشاد بقوّة قومه وشجعاتهم وثباتهم في الميدان ، وهم دائماً على أهبة الاستعداد لشنّ أي هجوم يأمر به الرّئيس :

كانوا فَريقَينِ يُصغونَ الزُجاجَ عَلى ... قُعسِ الكَواهِلَ في أَكتافِها شَمَمُ
وَآخَرينَ تَرى الماذِيَّ عُدَّتَهُم ... مِن نَسجِ داوُدَ أَو ما أَورَثَت إِرَمُ
هُم يَضرِبونَ حَبيكَ البَيضِ إِذ لَحِقوا ... لا يَنكُصونَ إِذا ما استُلحِموا وَحَموا
يَنظُرُ فُرسانُهُم أَمرَ الرَئيسِ وَقَد ... شَدَّ السُروجَ عَلى أَثباجِها الحُزُمُ
يَمرونَها ساعَةً مَرياً بِأَسؤُقِهِم ... حتّى إِذا ما بَدا لِلغارَةِ النَعَمُ
شَدّوا جَميعاً وَكانَت كُلُّها نُهَزاً ... تَحشِكُ دِرّاتِها الأَرسانُ وَالجِذَمُ (١)

لقحت الحرب : اشتدت وقويت . الهوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة . الضروس : العضوض السيئة الخلق . تمر الناس : تجعلهم يهرونها أي يكرهونها . العصل : المعوجة : ضرب الأنياب العصل مثلاً لقوة الحرب .

قضاعية : منسوبة إلى قضاعة . مضرية : منسوبة إلى مضر أي حرب منكرة . الجزل : ما غلظ من الحطب .

خيلت : شبهت . وأراد : على كل حال . هم إزاءها : أي هم الذين يقومون بها . الأزل : أن يحبس المال ولا يرسل إلى الرعي ، والمال عند العرب : الإبل .

يخشونها : يوقودها . النكل : الجبناء ، الواحد ناكل .

[1] – ديوانه ، ص ١١٩ .

يصغون : يهيئون للطعن . الزجاج : أراد بها الأسنة . قعس الكواهل : حدب الأكتاف ، وأراد مشرفة الأكتاف ، كأن بها حدباً . الواحد أقعس : أي أحدب . الشم : الارتفاع .

الماذي : الدروع السهلة اللينة الضافية . إرم : أمة قديمة ، ويقال هي عاد ، أراد أنها دروع قديمة متوارثة جيدة النسج ، منسوبة إلى داود النبي الذي يقال إنه أول من عمل الدروع ، والعرب تنسب كل قديم إلى عاد .

حبيك البيض : طرائقه ، الواحدة حبيكة ، والبيض ، الواحدة بيضة : ما يوضع على الرأس كالخوذة ينكصون : يتراجعون ، ينهزمون . استلحموا : أدركوا . حموا : أشتد غضبهم .

وزيّن زهير شعره المدحي بالثّناء على سيد بني فزارة حصن بن حذيفة لدوره الّذي لعبه في حروب قومه عبس وغيرها من القبائل ، فهو شجاع يأبى الذّل والهوان :

وَمَن مثلُ حصنٍ في الحُروبِ وَمِثلُهُ ... لإنكارِ ضَيمٍ أَو لأَمرٍ يُحاوِلُه
أَبى الضَيمَ وَالنُعمانُ يَحرِقُ نابُهُ ... عَلَيه فَأَفضى وَالسُيوفُ مَعاقِلُه
عَزيزٌ إِذا حَلَّ الحَليفانِ حَولَهُ ... بِذي لَجَبٍ لَجّاتُهُ وَصَواهِلُه
وَأَهلِ خِباءٍ صالِحٍ ذاتُ بَينِهِم ... قَد احتَرَبوا في عاجِلٍ أَنا آجِلُه [١]

وقد أتى في البيت الأوّل بالوصف من جهة الشّجاعة والعقل [٢] .

وعندما ردّ الحارث بن ورقاء غلام زهير (يسار) مدحه ، فقال الحارث لقومه : أيما أصلح ما فعلت أو ما أردتم ؟ قالوا ما فعلت ، وقد أثنى على ثبات فرسانهم وصدقهم في الحروب :

يُعطي الجَزيلَ وَيَسمو وَهوَ مُتَّئِدٌ ... بِالخَيلِ وَالقَومُ في الرَجراجَةِ الجولِ
وَبِالفَوارِسِ مِن وَرقاءَ قَد عُلِموا ... فُرسانَ صِدقٍ عَلى جُردٍ أَبابيلِ
في حَومَةِ المَوتِ إِذ ثابَت حَلائِبُهُم ... لا مُقرِفينَ وَلا عُزلٍ وَلا ميلِ
في ساطِعٍ مِن غَياياتٍ وَمِن رَهَجٍ ... وَعِثيَرٍ مِن دُقاقِ التُربِ مَنخولِ [٣]

---

1 – ديوانه ، ص ١٠١ . يحرق نابه : أي يصرف نابه من الغيظ . معاقله : حصونه . أفضى : صار في فضاء وصار يمتنع بالسيوف . والنعمان هو عمرو بن هند .

الحليفان : أسد وغطفان . بذي لجب : أي بجيش ذي صوت وجلبة . اللجات : اختلاط أصوات الناس .

الصواهل : الخيل .

2 – يُنظر ، نقد الشعر ، ص ٨٥ ، والعمدة ٢ / ١١٣ .

3 – ديوانه ، ص ٩١ . الزعزاعة : الحرب .

صدق : يصدقون في الحرب ويثبتون . أبابيل : متفرقة تأتي من كل وجه .

حلائبهم : جماعاتهم ، الواحدة حلبة . العزل : الذي لا سلاح معهم . الميل ، الواحد أميل – وهو الذي لا يثبت على فرسه . والأكشف : الذي يهرب من الحرب ، أو الذي لا ترس معه .

الساطع : الغبار المرتفع ضبابات جمع ضبابة ولعله يريد تشبيه غبار الحرب بها . الرهج والعثير : الغبار .

ذُكر أنّ عمر بن الخطاب ﷺ كان مع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فذكروا الشّعر ، فقال لهم عمر من كان أشعر العرب ؟ فاختلفوا ، فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم عبد الله بن عبّاس ، فقال عمر لجلسائه : قد جاءكم ابن بجدتها وأعلم النّاس بأيامها ، ثمّ قال عمر : من كان أشعر العرب يا بن عبّاس ؟ قال : ذاك زهير بن أبي سلمى المزني ، فقال عمر : هلاّ أنشدتنا أبياتاً ، نستدل بها على قولك فيه ! قال : نعم ، مدح قوماً من غطفان ، يُقال لهم بنو سنان (١) ، نذكر منها أبياتاً أشاد فيها بقوة عزيمة غطفان وهمّتهم الّتي لا تعرف الكلال ، يقول :

بِفتيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ يَبعَثُهُم … هَمٌّ فَكُلُّهُمُ ذو حاجَةٍ يَقِدُ
مَنَّهُمُ السَيرُ فَانآدَت سَوالِفُهُم … وَما بِأَعناقِهِم إِلّا الكَرى أَوَدُ
إِنّي لَأَبعَثُهُم وَاللَيلُ مُطَّرِقٌ … وَلَم يَناموا سِوى أَن قُلتُ قَد هَجَدوا
إِلى مَطايا لَهُم حُدبٍ عَرائِكُها … وَقَد تَحَلَّلَ مِن أَصلابِها القَحَدُ (٢)

ففلسفة زهير في إطار مدحه لشجاعة هؤلاء السّادة ، لا تختلف عن فلسفة الشّعراء آنذاك ، فهو يشيد بفروسية هؤلاء ، وبقوّة قلوبهم ورباطة جأشهم ، واستعدادهم الدّائم للفزع ، وثباتهم في الميدان ، وإيمانهم أنّ الحياة الجديرة بالبقاء هي حياة الفتوّة والشّجاعة والإقدام ، وقد تطرّق إلى بعض مظاهر الشجاعة ، حيث : التّشبّه بالأسود ، وحبّ الموت في ساحات الوغى ، لا حتف الأنوف ، وأشار إلى الغرض من هذه الشجاعة حيث : فك الأسرى وحماية الذّمار ، وهذه الفلسفة تنبع من فلسفة المجتمع آنذاك .

---

[1] – ديوانه ، ص ٤٧ .

[2] – ديوانه ، ص ٤٨ . يقد : يمضي في حاجته متوقداً ملتهفاً بهمة لا تعرف الكلال .

منّهم : قطعهم وأعياهم . انآدت : انعطفت وانحنت . السوالف ، الواحدة سالفة : وهي صفحة العنق .

الأود : الاعوجاج .

أبعثهم : أوقظهم من نومهم . المطّرق : المتراكب الظلمة . هجد : نام في آخر الليل .

قوله : " إلى مطايا " متعلق بقوله : " هجدوا " الحدب ، الواحدة حدباء : البارزة من الهزال . العرائك ، الواحدة عريكة : وهي السنام . تحلل : ذاب . الأصلاب ، الواحدة صلب : الظهر . القحد ، الواحدة قحدة : وهي أصل السنام . والأصح أن تجمع على قحاد .

الكــرم :

تأصّلت صفة الكرم في نفس العربي وأضحت طبعاً وسـجية ، لـذا أثنـى شعراؤهم على الكرماء بخاصّة السّادة الّذين لمعت نجومهم آنذاك ، وقد كان سـنان من أجواد أهل الجاهلية الّذين انتهى إليهم الجود [١] ، لذا أثنى عليه زهير ، مـشيراً إلى مظهر من مظاهر الكرم آنذاك ، فنار هذا السّيد لا تُخمد للـضّيف والطّـارق ، وهو مختلط بالنّاس ، ولا ينتحي وينزل وحده ، ويكون وسط البيوت حتّى يظنّ طالب المعونة عنده خير ، يقول :

نِعــمَ الفَتى المُرِّيُّ أَنتَ إِذا هُمُ　　　حَضَروا لَدى الحُجُراتِ نارَ المَوقِدِ
خَلِــطٌ أَلوفٌ لِلجَميــعِ بَيتِه　　　إِذ لا يُحَــلُّ بِحَيِّــزِ المُتَوَحِّــدِ
يَسِطُ البُيوتَ لِكَي يَكونَ مَظَنَّةً　　　مِن حَيثُ توضَعُ جَفنَةُ المُستَرفِدِ [٢]

وإذا جئته للعطاء تجده فرحاً متهلّلا ، لأنّك بسؤالك تعطيه ما يرغب ويتمنىّ ، أي أنّ فرحه بما يُعطي أكثر من فرحه بما يأخذ ، فقد زاد في وصف السّخاء منه ، بأن جعله يهشّ ، ولا يلحقه مضض [٣] :

تَراهُ إِذا ما جِئتَــهُ مُتَهَلِّلاً　　　كَأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أَنتَ سائِلُه [٤]

لذا يعطي من يأتيه طالباً للعطاء :

فَتىً إِن جِئتُ مُرتَغِباً إِلَيهِ　　　قَليلَ الوَفرِ مُجتَدِياً حَباني [٥]

وله مواقف مشرّفة في الجود والشّجاعة ، فقد أغاث ذبيان عندما نزلت بهـم الشّدة ، يقول :

---

1 - يُنظر ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١ / ٢٨٧ .

2 - ديوانه ، ص ٤٦ .

خلط : متخلط بالناس . ألوف للجميع : أي يجعل بيته في الجميع لا يتنحي وينزل وحده . وحيز : ناحية . والمتوحـد : الذي ينزل ناحية كي لا يُضيف ولا يَقْري .

يسط البيوت : يكون أوسطها لكي يظن الناس عنده خير . والمسترفد : الذي يُسأل الرفد والمعونة .

3 - يُنظر ، نقد الشعر ، ص ٨٥ ، العمدة ٢ / ١١٣ .

4 - ديوانه ، ص ٨٧ .

5 - ديوانه ، ص ١٣٢ .

المانعُ الجارِ يومَ الرَوعِ قَد عَلِموا		وَذو الفُضولِ بلا مَنٍّ وَلا كَدَرِ
إنّي شَهِدتُ كِراماً مِن مَواطنِهِ		لَيسَت بِغَيبٍ وَلا تَقوالِ ذي هَذَرِ
أَيّامَ ذُبيانُ إِذ عَضَّ الزَمانُ بِهِم		كانَ الغِياثَ لَهُم مِن هَيشَةِ الهُوَرِ (١)

اللافت للانتباه هنا أنّ زهيراً يركزّ على نقطة مهمّة في عطاء سنان ، فهو لا يُكدّر عطاه بالمن والأذى ، بخاصة إذا اشتدّ الزمان ، ونحن نعرف أنّ القرآن الكريم نهى عن إتباع الصّدقات بالمن والأذى (٢) ، وقد يعنى هذا أنّ سناناً بفطرته السّليمة آثر ألاّ يؤذي المحتاجين بالمن ، فهو بحقّ سيد كريم ، تأصّلت قيمة الكرم في نفسه ، يقول زهير مادحاً إيّاه في قصيدة أخرى :

فَتىً لا يَرزَأُ الخُلّانَ شَيئاً		وَلا يَبخَل بِما حَوَتِ اليَدانِ
أَبى لَكَ أَن تُسامَ الخَسفَ يَوماً		إِذا ما ضيمَ غَيرُكَ خَلَّتانِ
عَطاءٌ لا تُكَدِّرُهُ بِمَنٍّ		إِذا دَنَتِ الكَعابُ مِنَ الدُخانِ (٣)

وهنا تتجلّى فلسفة المدح عند زهير ، لأنّه ينصف ممدوحه ، تارة يصفه بأنّ متهلّل كأنك تعطيه الّذي أنت سائله ، وتارة أخرى يؤكّد على أنّ لا يُتبع ما يُعطى منّاً أو أذى ، فضلا عن أنّه هو الذي يبادر بالعطاء فهو الغياث بلا طلب من المحتاج .

ولا ينسى زهير الحارث بن عوف صاحب سنان ، فيثني عليهما في قصيدة طويلة ، فهم خير حيّ من معدّ ، ورثوا الكرم من أجدادهم ، وهم يعطوا في الواجب وغير الواجب ، يقول :

إِلى مَعشَرٍ لَم يورِثِ اللُؤمَ جَدُّهُم		أَصاغِرَهُم وَكُلُّ فَحلٍ لَهُ نَخلُ
هُمُ خَيرُ حَيٍّ مِن مَعَدٍّ عَلِمتُهُم		لَهُم نائِلٌ في قَومِهِم وَلَهُم فَضلُ (١)

---

[1] – ديوانه ، ص ٦٥ .

الهذر : سقط الكلام . المواطن : المواقف الكريمة في الشجاعة والسخاء .

الهيشة : الإفساد الهور ، الواحدة هورة : وهي المهلك ؛ وأصل الهورة بحيرة تفيض فيها مياه الرياض والآجام ، فتتسع ويكثر ماؤها . ويروى أيضاً " من هيشة الضرر " .

[2] – الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة الآية : ٢٦٢.

[3] – ديوانه ، ص ١٣١ .		لا يرزأ : لا ينقص .

قد تفرض السّنون الشّداد ، والحروب الطوال على السّادة بأن يعطوا في الواجب وغير الواجب ، فهل فرضت حرب داحس والغبراء الّتي استمرت أربعين عاماً على هذين السّيدين بأن يتكفّلا بثلاثة آلاف بعير دية للقتلى ، وحقنا للدّماء ، ورغبة في السّلم ؟ أهذا ضرب من الحكمة ؟ أم هو ضرب من النّخوة والشّهامة ؟ أم هو كرم تأصّل في النفوس ؟

ربّما الّذي يهمّنا في هذا المقام أنّ الرّجلين استحقّا المدح والثّناء بجدارة لحسن صنيعهم وجميل فعالهم ، ونالا من الحمد وشرف المنزلة للصّلح بين الأطراف المتصارعة ، وكأن الله ﷻ بارك هذا الصنيع :

رَأى اللَهُ بِالإِحسانِ ما فَعَلا بِكُم　　　فَأَبلاهُما خَيرَ البَلاءِ الَّذي يَبلو
تَدارَكتُما الأَحلافَ قَد ثُلَّ عَرشُها　　　وَذُبيانَ قَد زَلَّت بِأَقدامِها النَعلُ
فَأَصبَحتُما مِنها عَلى خَيرِ مَوطِنٍ　　　سَبيلُكُما فيهِ وَإِن أَحزَنوا سَهلُ [٢]

ويذكر زهير بعضاً من مظاهر الكرم في هذا العصر في مدحه لهرم بن سنان في قصيدة طويلة ، هذا الفيّاض ، الذي أضحى الكرم عنده خُلقاً وسجيّة ، كغيره من العرب ، يكرم من أجل أهداف سامية ، من أجل رفع المعاناة عن البائسين ، من أسرى معذّبين ومحتاجين ذوي مسغبة ومتربة ، يقول :

هُوَ الجَوادُ فَإِن يَلحَق بِشَأوِهِما　　　عَلى تَكاليفِهِ فَمِثلُهُ لَحِقا
أَغَرُّ أَبيَضُ فَيّاضٌ يُفَكِّكُ عَن　　　أَيدي العُناةِ وَعَن أَعناقِها الرِبَقا
فَضلَ الجِيادِ عَلى الخَيلِ البِطاءِ فَلا　　　يُعطي بِذَلِكَ مَمنوناً وَلا نَزِقا
قَد جَعَلَ المُبتَغونَ الخَيرَ في هَرِمٍ　　　وَالسائِلونَ إِلى أَبوابِهِ طُرُقا

[1] - ديوانه ص٩٣ .

[2] - ديوانه ، ص ٩٥ .

أبلاهما خير البلاء : صنع لهما خير الصنيع .

تداركتما الأحلاف : أي تداركتماهم بالحمالة والصلح . والأحلاف : عبس وفزارة وقيل إنها أسد وغطفان وطيء . ثل : كسر وهدم . وأراد بعرشها : بناءها . ذبيان : قبيلة الممدوحين وهم من غطفان ، وقوله : زلت بأقدامها النعل ، يشير إلى حصين بن ضمضم الذي جنى عليهم الحرب وهو منهم .

إن تَلقَ يَومـــاً عَلى عِلاتِه هَرِماً		تَلقَ السَماحَةَ مِنهُ وَالنَدى خُلُقا
وَلَيسَ مانِعَ ذي قُربى وَذي نَسَبٍ		يَوماً وَلا مُعدِماً مِن خابِطٍ وَرَقا (١)

وهو بذلك يرفع من قدر ممدوحه المشهور بالكرم ، الّذي يُكـــرم لأهـــداف إنسانية ، يعطي الجميع ، لا يمنع أحداً ، لا يمنع ذا القُربى ، ولا ذا النسب ، يساوي بين الجميع ، ولا يميّز أقاربه عن غيرهم في العطاء ، وهو بذلك قد يختلـــف عـــن بعض كرماء العرب ، ومنهم عروة بن الورد ، الّذي كان يخصّ أقاربه المحتـــاجين ذوي المسغبة (٢) ، وهنا يظهر الفرق بين هذا السّيد الجواد ، الّذي جمع مالاً وعدّده ، وبين عروة سيد الصّعاليك الذي كان يسعى للسّلب والنّهب من أجل رفع المعانـــاة عن البائسين وهنا يظهر قاسم مشترك بينهما .

وتزداد فلسفة زهير في مدحه وضوحاً ودقة في محاولته إظهـــار ممدوحـــه بصورة مرموقة مميّزة ، فهو لا يُعطي الجميع وحسب ، ولا يُعطى أحيانـــاً ، بـــل يُعطي دوماً بلا مطل ولا تعب ، ويُعطي في غير موضع الطّلب عندما يُطلب منـــه وفي ذلك ظلم ، ولكنّه لكرمه وجوده وحلمه يقبل هذا الظلم .

هُوَ الجَوادُ الَّذي يُعطيكَ نائِلَهُ		عَفواً وَيُظلَمُ أَحياناً فَيَظَّلِمُ
وَإِن أَتاهُ خَليلٌ يَومَ مَسأَلَةٍ		يَقولُ لا غائِبٌ مالي وَلا حَرِمُ (٣)

وهو يقدم الجفان كالجواب مترعة بالطّعام على مدار السّاعة إن صحّ التعبير لذوي الحاجات الشّديدة وكأنهم جمال حنت أعناقها من شدة العطش ، يقول :

كَأَنَّ ذَوي الحاجاتِ حَولَ قِبابِهِ		جِمالٌ لَدى ماءٍ يَحُمنَ حَوانِي
إِذا ما غَشوا الحَدّادَ فَرَّقَ بَينَهُم		جِفانٌ مِنَ الشيزى وَراءَ جِفانِ (١)

---

1 – ديوانه ، ص ٧٨ – ٧٩ . أغر أبيض : بيّن الكرم مشهورة ، نقي من العيوب . العناة ، الواحد عانٍ : وهو الأسير . الربق : الأغلال . البطاء . والممنون : المقطوع أو ما يمن به عليك . والترق : الذي يبطئ بعد الجري ، والذي يعطي ما عنده ثم يكفّ . ويروي ولا نفقا ، والنفق : السريع الذهاب . المعدم : المانع . الخابط : طالب المعروف .

2 – يُنظر ، ديوان عروة بن الورد ، ص ٦٩ – ٧٠ .

3 – ديوانه ، ص ١١٨ . يعطي عفواً : أي بلا مطل ولا تعب .وقوله : يظلم أحياناً ، أي يطلب منه في غـــير موضـــع الطلب وغير وقته . يظلم : أي يحتمل هذا الظلم ، لكرمه وجوده . ومعنى الظلم هنا : وضع الشيء في غير موضعه . الخليل : الفقير ، ذو الخلة ، أي الفقير . لا حرم : أي غير ممنوع مالي عنك .

ولم يكتف زهير بذلك ، فمدوحه بحر يفيض على الجميع غيث ، مَقْصَد لذي المال والعديم ، لا يستغني عنه أحد :

وَهو غَيثٌ لَنا في كُلِّ عامٍ   يَلوذُ بِهِ الُمخَوَّلُ وَالعَديمُ (٢)

وأقسم بالله أنّه يطعم البائسين الفقراء شحم السّديف في الشتاء عندما تعزّ البُدن ، ويكون الجدب حيث يقول :

تَاللَـهِ قَد عَلِمَت قَيسٌ إِذا قَذَفَت   ريحُ الشِتاءِ بُيوتَ الحَيِّ بِالعُنَنِ

أَن نِعمَ مُعتَرَكُ الحَيِّ الجِياعِ إِذا   خَبَّ السَفيرُ وَمَأوى البائِسِ البَطِنِ

مَن لا يُذابُ لَهُ شَحمُ النَصيبِ إِذا   زارَ الشِتاءُ وَعَزَّت أَثمُنُ البُدُنِ (٣)

وفي ذلك تأكيد على أنّ كرم العربّي يتأكّد في الشّتاء ، حيث الجدب وقلّة الزّاد ، ولم يتردّد زهير في الثّناء على كرم ممدوحه ، إذ أغدق عليه وقت الشدّة ، حيث يقول :

إِذا جَرَّفَت مالي الجَوارِفُ مَرَّةً   تَضَمَّنَ رِسلاً حاجَتي اِبنُ سِنانِ

وَحاجَةَ غَيري إِنَّهُ ذو مَوارِدٍ   وَذو مَصدَرٍ مِن نائِلٍ وَبَيانِ

يَسُنُّ لِقَومي في عَطائِيَ سُنَّةً   فَإِن قَومِيَ اعتَلّوا عَلَيَّ كَفاني (٤)

---

1 – ديوانه ، ص ١٣٤ . يحمن : يجئن ويذهبن . الحواني ، الواحدة حانية : التي حنت عنقها من العطش . الحداد : البواب . وكل من منع شيئاً فقد حده ومنه يقال للسجان حداد . الجفان ، الواحدة جفنة : القصعة العظيمة . الشيزي : شجر تتخذ من القصاع .

2 – ديوانه ، ص ١٢١ . المخول : ذو المال والخول . العديم : الفقير .

3 – ديوانه ، ص ١٢٨ . العنن ، الواحدة عُنّة : وهي حظيرة من شجر ، تعمل حول البيت لتر الريح عنه ، فإذا اشتدّت الريح قلعتها ورمت بها على البيت .

المعترك : موضع الازدحام . خبّ : جرى ومرّ على وجه الأرض . السفير : ما أنحت من ورق الشجر وتناثر . البطن : النهم ، أو الذي لزق ظهره ببطنه جوعاً وإنما سمي الورق سفيراً لأن الريح تسفره أي تكنسه .

ويروى " شحم السديف " وهو قطع السنام ، وشحم النصيب : أي نصيبه من الشحم . وقوله " لا يذاب له أي يطعمه الناس طرياً ، ولا يدخره .

4 – ديوانه ، ص ١٣٤ . الجوارف ، الواحدة جارفة : المصيبة والداهية . وقوله " تضمن رسلا " أي كفاني على هينة . اعتلوا : امتنعوا ، لم يعطوني . أي إن لم يعطني أحد أعطاني .

لنا أن نتساءل : إذا كان هرم يبسط يديه بالعطاء للجميع بلا انقطاع ، فلماذا يذكر زهير في هذه القصيدة أنّه يكفيه إذا نزلت به المصائب والدّواهي ، وضاقت به السّبل ، وامتنع قومه عن تقديم يد العون له ، مع العلم بأنّه كان يُغدق عليه في كلّ الأحوال ؟ وهل نزلت المصائب فعلاً بزهير وأصبح مُعدما يوماً ؟ وهل امتنع قومه عن تقديم يد المساعدة ؟

سبق أن ذكرنا أنّه كان موسراً ، ولكن هذا لا يمنع من نزول المصائب ، فيصبح صعلوكاً أحياناً ، ولكن المصادر لم تُثبت ذلك ، وقد نستبعد امتناع قومه عن تقديم يد العون له ، لأنّ ذلك ليس من شيمهم ، لذا نبقى في حيرة من أمرنا ، أفعل ذلك اعترافاً بالفضل لصديق حبيب أغاث حبيبه البائس المحتاج ؟ ، أم هو اعتراف بأنّ هرماً يعطي زهيراً مقابل مدحه ؟

أغلب الظنّ حتّى لا نبعد كثيراً أنّ زهيراً يعترف بفضل ممدوحه في الرّخاء والشّدّة ، مدحه أم لم يمدحه ، وفي ذلك تأكيد على عمق العلاقة وخصوصيتها بين المادح والممدوح .

وإلى نفس المعاني تقريباً يشير في مدحه لحصن بن حذيفة في قصيدة طويلة ، فهو كثير العطاء بلا انقطاع ، فهو أشبه ما يكون بغمامة ، يقول :

وَأَبيَضَ فَيّاضٍ يَداهُ غَمامَـةٌ عَلى مُعتَفيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُـه

بَكَرتُ عَلَيـهِ غُدوَةً فَرَأَيتُـهُ قُعـوداً لَدَيهِ بِالصَريمِ عَواذِلُـه

فَأَقصَرنَ مِنهُ عَن كَريمٍ مُرَزَّءٍ عَزومٍ عَلى الأَمرِ الَّذي هُوَ فاعِلُه (١)

هنا يحاول أن يرفع من قدر ممدوحه بطريقة أخرى ، فهو يُعطي بلا حساب ، لدرجة أنّه يجد معارضه من عواذل يلمنه على إسرافه ، عاجزين عن خداعه حتّى يَكُفّ عن العطاء بهذه الصّورة .

وتزداد وتيرة عمق فلسفته من الرّفع من قدر ممدوحه ، فهو متميّز عن غيره بكثرة معروفة وسعة أفضاله ، يُوثق بما عنده من الخير لما عُلِمَ من جوده وكرمه .

[1] – ديوانه ، ص ١٠٠ . المعتفون : الطالبون .

الصريم ، الواحدة صريمة : قطعة من الرمل تنقطع عن معظم الرمل . عواذلة : اللاتي يعذلنه على إنفاقه المال

أَخي ثقَةٍ لا تُتلفُ الخَمرُ مالَهُ وَلَكنَّــهُ قَد يُهلكُ المالَ نائلُــه
تَراهُ إذا مــا جئتَــهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعطيه الَّذي أَنتَ سائلُه
وَذي نَسَبٍ ناءٍ بَعيد وَصَلتَهُ بِمالٍ وَما يَدري بِأَنَّكَ واصلُــه
وَذي نِعمَةٍ تَمَّمتَها وَشَكَرتَها وَخَصمٍ يَكادُ يَغلِبُ الحَقَّ باطلُه (١)

يُثني على عفّته لقلّة إمعانه في اللّذّات ، وأنّه لا يُنفد فيها مالــه ، وعلــى سخائه لإهلاكه ماله في النّوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللّذّات ، وذلك هو العقل ، أو العدل ، وزاد في وصف السّخاء بأن جعله يهشّ له ، ولا يلحقه مضض ، ولا تَكَرُّهٌ لفعله (٢) ، فهو يمدّ يده للمحتاجين بصدر رحب ، ووجه مسفر ضاحك مستبــشر ، كأنّه هو الذي يُعطَى ولا يُعْطِي ، فهو فرح مستبشر بهذا العطاء لأنّه يخفــف مــن معاناة البائسين ، هذا العطاء كثير قد يصل أقوام آخرين ، وهنا يبدع زهير عنــدما يبيّن ذلك الوصل وهم لا يعرفون ذلك ، وفي ذلك رفع لقدر الممدوح ، وبيان لكثرة معروفه وسعة أفضاله .

وقد جمع في أبياته السّابقة بين فضائل العفّة ، والعقل ، والسّخاء ، بالإضافة إلــى الوفاء في قوله : " أخي ثقة " ، لذا قدّم مروان أبي حفصة زهيراً في المدح في هذه الأبيات (٣) .

أحسب أنّ زهيراً أبدع في بيان فلسفته في المدح ، والرّفع من قيمة ممدوحه بخاصّة أنّه يمدح سادة كرماء ، بحور تفيض بالعطاء ، معروفهم كثير ، وأفــضالهم واسعة ، عطاؤهم غيث نافع ، بلا انقطاع ، للجميع بلا استثناء من أجل رفع المعاناة عن البائسين وغيرهم ، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة كأنك تعطيهم الذي أنــت سائله .

---

1 – ديوانه ، ص ١٠٠ ، ١٠١

2 – يُنظر ، نقد الشعر ، ص ٨٥ ، العمدة ٢ / ١١٣ .

ثم قال : فمن مثلُ حصنٍ في الحروب ومثله لإنكار ضيمٍ، أو لخصمٍ يُجادله

أتى بهذا البيت بالوصف من جهة الشّجاعة ، والعقل ، فاستوعب بأبياته هذه المديح بالأربع خصال : العقل ، الشّجاعة ، العدل ، العفّة . يُنظر ، نقد الشّعر ، ص ٨٥ ، والعمدة ٢ / ١١٣ .

3 – يُنظر ،نقد الشّعر ، ص ٨٥ ، والعمدة ٢ / ١١٣ .

عراقة الأصل :

أشاد زهير بعراقة أصل سنان بن أبي حارثة صاحب الخُلق والمجد ، الّـــذي ينتمي إلى قبيلة غطفان ، حيث قال :

وَإنّي لَمُهدٍ من ثَناءٍ وَمِدحَةٍ إلى ماجِدٍ تُبغى لَدَيه الفَواضِلُ
مِنَ الأَكرَمينَ مَنصِباً وَضَريبَةً إذا ما شَتا تَأوي إِلَيه الأَرامِلُ (١)

شرف هؤلاء مع القمر في رفعته ، فهم يحلّقون عالياً في سماء المجد والعزّ :

قَوماً تَرى عِزَّهُم وَالفَخرَ إن فَخَروا في بَيتِ مَكرُمَةٍ قَد لُزَّ بالقَمَرِ (٢)

ولِمَ ، لا ، فهم سادة أشراف ، ينتمون إلى أصل عريق :

مِن جِذمِ ذُبيانَ تَنميهِم ذَوائِبُها إلى أَرومَةِ عِزٍّ غَيرِ مُحتَقَرِ (٣)

وأثنى على عراقة أصل ابن هرم ، وكريم نسبه في مثل قومه :

يَنمي إِلى ميراثِ والِـــدِهِ كُلُّ امرِئٍ لِأَرومَـــةٍ يَنمـــي
فيها مُرَكَّبُـــهُ وَمَحتِـــدُهُ في اللُؤمِ أَو في المَوضِعِ الفَخمِ (٤)

وقد ورث كثيراً من المجد والشّرف والمآثر من آبائه وأجداده :

لَهُ في الذاهِبينَ أُرومُ صِدقٍ وَكانَ لِكُلِّ ذي حَسَبٍ أُرومُ (٥)

ولم يتردّد في مدح كريم نسب الحارث بن ورقاء ، الّذي ردّ إليه غلامة يسار ، يقول :

يأَبى لحارِثَ أنْ تُخْشَى غَوائِلهُ أبٌ كَريمٌ وَخالٌ غَيْرُ مَجْهولِ (٦)

اعتزاز العربي بعراقة الأصل وكريم النّسب أمر طبيعي ومهم في مجتمـــع قبلي ، فطالما اعتزّ العربي بذلك ، لذا حاول زهير الرّفع من قيمة ممدوحه عنـــدما

1 – ديوانه ، ص ٨٦ . المنصب : الأصل والأرومة . الضريبة : الخليفة .
2 – ديوانه ، ص ٦٤ . قوله " لز بالقمر " أي شدّ به .
3 – ديوانه ، ص ٦٤ . الجذم : الأرومة ، الأصل . تنميهم : ترفعهم . الذوائب : الأشراف ، السادة .
4 – ديوانه ، ص ١٠٤ . المركب : المنبت والأصل . المحتد : الأصل الكريم .
5 – ديوانه ، ص ١٢٢ .
6 – ديوانه ، ص ٩١ . الغوائل : الدواهي .

ضرب على هذا الوتر الحسّاس ، وقد أجاد في ذلك ، وقد سار على هذا المنوال كثير من الشّعراء في العصر الإسلامي وما بعده .

المجد والشّرف :

عراقة الأصل ، والمجد والشّرف توءمان لا ينفصلان ، فالمجد ينبثق من أصل عريق ، ونسب شريف ، يتوارثه الأبناء جيلاً بعد جيل من الآباء والأجداد ، لذا أثنى شاعرنا على مجد ممدوحَيْه سنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف ، و شرفهم في إحدى قصائده ، كيف لا ؟ ! وهما من خير غطفان منصباً ، يقول :

سَعى بَعدَهُم قَومٌ لِكَي يُدرِكوهُمُ　　　فَلَم يَفعَلوا وَلَم يُليموا وَلَم يَألوا
فَما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فَإِنَّما　　　تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ
وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إِلّا وَشيجُهُ　　　وَتُغرَسُ إِلّا في مَنابِتِها النَخلُ (١)

تفاعلت موهبة الشّاعر ، وحكمته وصدقه في إنصاف ممدوحه ، والرّفع من شأنه بأسلوب حكمي منطقي ، ممدوحه متقدّم في المجد والشّرف ، وهذا لا يعني أنّه في القمّة ، فقد يتقدّم عليه آخرون ، لذا كان ذكياً ودقيقاً ، إذ أكّد على أنّ ممدوحه وقومه في ذروة المجد ، لا يتقدّم عليهم أحد ، إذ سعى على آثارهم قوم لكي يدركوهم ، فلم ينالوا ذلك ، فقد ورث هؤلاء المجد من آبائهم ، ولم يفرّطوا فيه ، كما القناة لا تنبت إلاّ القناة ، ولا يُغرس النّخل إلاّ بحيث ينبت ويصلح ، فهو بذلك يسوق " دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرّماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلاّ في البيت الكريم " (٢) .

وممدوحه هرم بن سنان شريف ، سمح الخلائق ، كما ذكر في قصيدة بعنوان : الجواد المفضّل الماجد .

يَهوي بِها ماجِدٌ سَمحٌ خَلائِقُهُ　　　حتّى إِذا ما أَناخَ القَومُ فَاحتَزَموا (٣)

[1] – ديوانه ، ص ٩٦ . لم يألوا : لم يقصروا

الوشيج : القنا الملتف في منبته ، الواحدة وشيجة . الخطي : الرماح تنسب إلى الخط وهي جزيرة : بالبحرين .

[2] – د . شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، ص ٣١٠ .

[3] – ديوانه ، ص ١١٨ . احتزموا : أي شدوا حزمهم وتأهبوا للقتال . الماجد : الشريف .

إذا تسابقت النّاس لإدراك غاية من المجد يسود من سبق إليها :

إذا ابتَدَرَت قَيسُ بنُ عَيلانَ غايَةً　　　مِنَ المَجدِ مَن يَسبِق إِلَيها يُسَوَّدِ (١)

ويسبق كلّ بيّن للفضل معطاء ، سابق النّاس إلى الكرم والخير ، لينتهي إلى غايته طوعاً :

سَبَقتَ إِلَيها كُلَّ طَلقٍ مُبَرِّزٍ　　　سَبوقٍ إِلى الغاياتِ غَيرَ مُجَلَّدِ

كَفَضلِ جَوادِ الخَيلِ يَسبِقُ عَفوُهُ ال　　　سِراعَ وَإِن يَجهَدنَ يَجهَد وَيَبعُدِ (٢)

ويؤكّد على ما ذهب إليه للرّفع من شأن ممدوحه السّيد الكريم ، الّذي يستحق أن يكون في ذروة المجد ، فهو يُفضّل على آخرين ، وإن كان المفضول جواداً كريماً :

فَضَّلَهُ فَوقَ أَقوامٍ وَمَجَّدَهُ　　　ما لَم يَنالوا وَإِن جادوا وَإِن كَرُموا (٣)

ولا عجب في ذلك ، فهو عريق المجد ، شرفه قديم مُوَرَّث عن آبائه ، فلا يثنيه عن طلب الرئاسة ملل أو كلل ، فهو أشبه ما يكون بالسّيف في مضائه وقطعه :

مُوَرَّثُ المَجدِ لا يَغتالُ هِمَّتَهُ　　　عَنِ الرِياسَةِ لا عَجزٌ وَلا سَأَمُ

كَالهِندُوانِيِّ لا يُخزيكَ مَشهَدُهُ　　　وَسطَ السُيوفِ إِذا ما تُضرَبُ البُهَمُ (٤)

أحسب أنّ زهيراً أجاد إلى حد كبير في وضع ممدوحه في مكانة مرموقة مستحقّة ، فهو سيد ابن سيد ، عريق الأصل ، طيب المنبت ، بخاصّة إذا سلّمنا بأنّه لا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه ، وأثنى زهير على شرف حصن بن حذيفة ، إذ ورثه عن أبيه وجدّه ، الّذين حلّقا في عالم المجد والسّؤود .

حُذَيفَةُ يُنميهِ وَبَدرٌ كِلاهُما　　　إِلى باذِخٍ يَعلو عَلى مَن يُطاوِلُه (٥)

---

1 – ديوانه ، ص ٤٣ . ابتدرت : تسابقت . يسود : يعطي السيادة .

2 – ديوانه ، ص ٤٣ . الطلق : البين الفضل ، العطاء ، المبرز : السابق الناس إلى الكرم والخير .

3 – ديوانه ، ص ١٢٠ .

4 – ديوانه ، ص ١٢٠ . البهم ، الواحد بهمة : البطل الشجاع . الذي لا يُدرى من أين يُؤتى في القتال .

5 – ديوانه ، ص ١٠١ . حذيفة : أبو الممدوح . بدر : جده . الباذخ : العالي ، وأراد به شرفه .

وفي القصيدة الرائعة الّتي مدح فيها غطفان ، الّتي استدلّ بها عبد الله بن عبّاس على أنّ زهيراً أشعر العرب ، أشاد بحسبهم ومجدهم ، إذ قال :

سيروا إلى خيرِ قَيسٍ كُلِّها حَسَباً   وَمُنتَهى مَن يُريدُ المَجدَ أَو يَفِدُ
فاستَمطِروا الخَيرَ مِن كَفَّيهِ إِنَّهُما   بِسَيبِــهِ يَترَوّى منهُمـا البُعُـدُ
مُبارَكُ البَيتِ مَيمـونٌ نَقيبَتُــهُ   جَزلُ المَواهِبِ مَن يُعطي كَمَن يَعِدُ (١)

وليس هذا وحسب ، فهؤلاء القوم أبوهم سنان ، الذي ورث المجد وورّثه لأولاده ، فهم سادة جامعون لكل خير أولاد سادة .

لَو كـانَ يَخلُـدُ أَقوامٌ بِمَجدِهِـمُ   أَو ما تَقَدَّمَ مِن أَيّامِهِـم خَلَـدوا
أَو كانَ يَقعُدُ فَوقَ الشَمسِ مِن كَرَمٍ   قَومٌ بِأَوَّلِهِم أَو مَجدِهِـم قَعَـدوا
قَومٌ أَبوهُـم سِنانٌ حينَ تَنسُبُهُـم   طابوا وَطابَ مِنَ الأَولادِ ما وَلَدوا
إِنسٌ إِذا أَمِنـوا جِنٌّ إِذا غَضِبـوا   مُرَزَّؤونَ بَهاليلٌ إِذا جُهِـدوا (٢)

يُحسب لزهير أنّه لم يطلق القول في هذا المعنى إطلاقاً ، بل جعله في حيّز " لو " حتّى يخرج من باب المبالغة الّذي أوشك على الدّخول فيه ، وهذا يعني أنّه التزم فلسفة واحدة في مدحه ، بأن لا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه ، وبذلك نأى بنفسه عن المبالغة الّتي تبعدنا عن الصدق والموضوعية ، وتفقدنا الثقة بالشّاعر ، ولكنّه في الوقت نفسه حريص كلّ الحرص على أن ينصف ممدوحه ويعطيه حقّه الطبيعي ، ولا ننسى بأنّه يمدح سادة تبوّأوا مكانة مرموقة آنذاك ، هؤلاء السّادة :

مُحَسَّدونَ عَلى ما كانَ مِن نِعَمٍ   لا يَنزِعُ اللَهُ مِنهُم ما لَهُ حُسِدوا
لَو يوزَنونَ عِياراً أَو مُكايَلَةً   مالوا بِرَضوى وَلَم يَعدِلهُم أُحُـدُ (٣)

[1] – ديوانه ، ص ٤٩ . قيس : أراد قيس عيلان . السيب : العطاء . الميمون النقيبة : الناجح فيما يحاول ، الحسن المشورة .

[2] – ديوانه ، ص ٤٩ .

المرزوؤون ، الواحد مرزأ : الكريم السخي يصاب كثيراً في ماله . البهاليل ، الواحد بهلول : السيد الجامع لكل خير .

[3] – ديوانه ، ص ٥٠ . رضوى : جبل بين المدينة وينبع . أحد : جبل مشهور ، بينه وبين المدينة قرابة ميل ، وعنده كانت غزوة أحد التي استشهد فيها حمزة رضوان الله عليه . ورويت : أَحَدُ .

الصّبر والحزم ورجاحة العقل والحلم :

مدح زهير هرم بقوة عزيمته ، وصبره في النّوازل والشّدائد في قصيدة بعنوان : " خير البداة وسيد الحضر " ، حيث قال :

مُتَصَرِّفٍ للمَجدِ مُعتَرِفٍ ... للنّائباتِ يَراحُ للذّكرِ
جَلدٍ يَحُثُّ عَلى الجَميعِ إذا ... كَرِهَ الظَنونُ جَوامِعَ الأَمرِ (١)

وفي موضع آخر أشاد بحزمه في مثل قوله :

أَجلَت صُروفُكَ عَن أَخي ثِقَةٍ ... حامي الذِمارِ مُخالِطِ الحَزمِ (٢)

ومدح فيه رجاحة عقله ، إذ قال :

وَذاكَ أَحزَمُهُم رَأياً إذا نَبَأٌ ... مِنَ الحَوادِثِ غادى الناسَ أَو طَرَقا (٣)

وذكر في قصيدة أخرى أنّه ماهر بصير ، راجح العقل ، متبصّر بالأمور ، يقول :

حُلوٌ أَريبٌ في حَلاوَتِهِ ... مُرٌّ كَريمٌ ثابتُ الحِلمِ (٤)

وكذلك فعل في القصيدة الّتي مدح فيها سنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف ، فهم عقلاء حلماء ، يبينون ما أشكل من الأمور ، يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء ، حيث قال :

وَإن جِئتَهُم أَلفَيتَ حَولَ بُيوتِهِم ... مَجالِسَ قَد يُشفى بِأَحلامِها الجَهلُ (٥)

أمّا حصن بن حذيفة ، فقد ذكر أنّه يهتدي إلى مفاصل الكلام ومقاطعه إذا لم يهتد إليها النّاطقون ، وأنه يحلم ويصفح عن الّذين يخطئون في الكلام ، في مثل قوله :

---

1 – ديوانه ، ص ٥٥ . يراح للذكر : يهش ويخف ويطرب لأن يفعل فعلاً كريماً يذكر به . الظنون : الذي لا يوثق بما عنده لما علم من قلة خيره . جوامع الأمر : ما يجمع الناس من شأنهم والظنون : البئر القليلة الماء التي لا يوثق بها .

2 – ديوانه ، ص ١٠٤

3 – ديوانه ، ص ٧٨ .

4 – ديوانه ، ص ١٠٥ . الأريب : الماهر ، البصير .

5 – ديوانه ، ص ٩٦

دَفَعتَ بِمَعروفٍ مِنَ القَولِ صائِبٍ ... إِذا ما أَضَلَّ الناطِقينَ مَفاصِلُه

وَذي خَطَلٍ في القَولِ يَحسَبُ أَنَّهُ ... مُصيبٌ فَما يُلمِم بِهِ فَهوَ قائِلُه

عَبَأتَ لَهُ حِلماً وَأَكرَمتَ غَيرَهُ ... وَأَعرَضتَ عَنهُ وَهوَ بادٍ مَقاتِلُه (١)

وكان لبني الورقاء نصيب في الإشادة بحلمهم ، في المجالس ، وجهلهم في الحروب ، في قوله :

سَتُرحَلُ بِالمَطِيِّ قَصائِدي ... حَتّى تَحُلَّ عَلى بَني وَرقاءِ

مِدَحاً لَهُم يَتَوارَثونَ ثَناءَها ... رَهنٌ لآخِرِهِم بِطولِ بَقاءِ

حُلَماءُ في النادي إِذا ما جِئتَهُم ... جُهَلاءُ يَومَ عَجاجَةٍ وَلِقاءِ (٢)

العدل والحكمة :

كان للعدل نصيب في مدائح زهير ، فعندما مدح سنان ، والحارث في قصيدة بعنوان ، خير حيّ من معد ، مدح فيهم عدلهم وصحة حكمهم ، فإذا اختلف قوم بأمر رضوا بحكمهم ، في مثل قوله :

مَتى يَشتَجِرْ قَومٌ يَقُلْ سَرَواتُهُمْ ... هُمُ بَيْنَنا فَهُمُ رِضيً وهُمُ عدْلُ (٣)

أمّا المفضّل الماجد هرم بن سنان ، فهو قوي البنية ، سديد الرّأي ، معتدل الحكم :

يَقسِمُ ثُمَّ يُسَوّي القَسمَ بَينَهُمُ ... مُعتَدِلُ الحُكمِ لا هارٍ وَلا هَشِمُ (٤)

كما أنّه حكيم ، ثابت الفؤاد ، ضرب اللّسان إذا تخاصمت الخصوم واختلفت :

وَلا ساهي الفُؤادِ وَلا عَيِيِّ ال ... لِسانِ إِذا تَشاجَرَتِ الخُصومُ (٥)

[1] - ديوانه ، ص ١٠١ .

[2] - ديوانه ، ص ٢٧ . العجاجة : الغارة ، وأصلها من الغبار الثائر في الحرب .

[3] - ديوانه ، ص ٩٥ . يشتجر : يختلف . السروات ، جمع سراة والواحد سري : السيد ، الشريف

[4] - ديوانه ، ص ١٢٠ . الهاري : الضعيف . الهشم : السريع الانكسار .

[5] - ديوانه ، ص ١٢١ . ساهي الفؤاد : طائش . العيي : العاجز .

التّقوى :

سبق أن ذكرنا بعضاً من معاني المدح الّتي اتّصف بها هرم بن سنان في القصيدة الميمية ، بعنوان (الجواد المفضّل الماجد) ، وهنا نقف وقفة متأنية على صفة مثيرة للجدل والنقاش ، إذ أثنى زهير على تقوى ممدوحه ، فهي طبع وسجيّة فيه ، فالله ﷻ يعصمه من العثرات والزلل لأنّه عظيم التّقوى ، يقول :

وَمِن ضَريبَتِهِ التَقوى وَيَعصِمُهُ مِن سَيِّءِ العَثَراتِ اللَهُ وَالرَحِمُ [1]

وفي قصيدة دالية أخرى ذكر أنّه نقى تقي ، حسن الخُلق ، عادل لم يكثر ماله بظلم قرابته وأخذه ماله في مثل قوله :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَم يُكَثِّر غَنيمَةً بِنَهكَةِ ذي قُربى وَلا بِحَقَلَّدِ [2]

ولم يكتف بذلك ، وذكر في قصيدة رائية بعنوان (خير البداة وسيد الحضر) أنّ بينه وبين الفاحشات ستر الحياء ، وتقوى الله ، ولا ستر بينه وبين الخير ؛

وَالسِترُ دونَ الفاحِشاتِ وَما يَلقاكَ دونَ الخَيرِ مِن سِترِ [3]

أُثني عَلَيكَ بِما عَلِمتُ وَما سَلَّفتَ في النَجَداتِ وَالذِكرِ

لَو كُنتَ مِن شَيءٍ سِوى بَشَرٍ كُنتَ المُنَوِّرَ لَيلَةَ البَدرِ [4]

نقف قليلاً عند كلمة (التّقوى) ، الّتي تعني –كما هو معروف – : الخوف من الله ﷻ والامتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه .

والسّؤال الّذي يطرح نفسه قبل كلّ شيء، هل وردت هذه اللّفظة قي الشّعر الجاهلي ؟ !

حسب علمنا لم ترد في هذا الشّعر ، فهي لفظة إسلامية ، ولكن هذا لا يمنع من وجودها في هذا العصر ، الّذي انتشرت فيه بجانب الوثنية عدّة ديانات من : حنفية ، ويهودية ، ونصرانية ، فلا نستغرب من شاعر حكيم حرّم على نفسه الخمر

---

1 – ديوانه ، ص ١٢٠ . ضريبته : خليقته .

2 – ديوانه ، ص ٤٣ . النهكة : النقص والإضرار . الحقلد : البخيل السيء الخلق .

3 – حُكي أنّ عمر بن الخطّاب لما أنشده هذا البيت قال : ذاك رسول الله ﷺ .

4 – ديوانه ، ص ٥٥ . النجدات ، الواحدة نجدة : الشدة والبأس .

والسّكر والأزلام ، مما يشير إلى اعتناقه الحنفية كما ذكر ابن حبيب [١] ، أو على أقل تقدير معرفته بهذه اللفظة وما تعني ، أو كما ذكر د . شوقي ضيف بأنّ هذه خطرات كانت تمرّ به ، مع إنّه رجّح بأنّه بقي على وثنيته [٢] ؛ أن يذكر لفظة (التقوى) ، بخاصّة انّه يمدح سيداً كريماً ، حسن الخُلق ، آمن بكثير من الخلاق الحميدة ، ومبادئ الأخلاق ، فهو ينأى بنفسه عن الفواحش ، حياءً ، وخوفاً من المولى ﷻ ، أو خوفاً من العادات والتقاليد ، والعرف ، الّذي كان بمثابة الدين أو القانون آنذاك [٣] .

ويشاركنا الرّأي شارح ديوان زهير في مقدّمته ، إذ بيّن أن هذه الأبيات وغيرها من الأبيات في معلقته تدل على ما للدّين من خطر في نفسه ، حتّى مال البعض إلى الشّك فيها ، وأبى نسبتها إليه ، وعقّب على ذلك بأنّ هذا الأمر لا يدعو إلى العجب في ظل تعاقل زهير ، وحكمته ، وحسن بصيرته بالأمور ، فغير بعيد أن يصل أشباهه إلى معرفة الله ، والإيمان بالآخرة ، والثّواب والعقاب عن طريق المسيحية واليهودية وهما غير مجهولتين في جزيرة العرب .

قبل أن نذكر أمثلة على ذلك من الشّعر الجاهلي نود أن نشير إلى أنّ العرب لم يكونوا يؤمنوا بالأوثان خالقة مدبّرة قادرة ، ولم يكن الشرك إشراكاً في وحدانية الله فقد كانوا يؤمنون بالله الواحد القوي الخالق ، الّذي بيده الأمر ، وكان اتّخاذهم الأصنام على أنّها وسائط وشفاعات تقرّبهم إلى الله ﷻ وقد نصّ القرآن على ذلك في غير آية ، قال تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [٤] ، وقال في صفة الجاهلين الّذين يتقرّبون إليه بأصنامهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [٥] ، وقد جاءت الآية الكريمة لتدلّ على إيمانهم بالله الخالق

---

1 – ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٣٨ .

2 – يُنظر ، د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٣٠٣ .

3 – يُنظر ، د. جواد علي : المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ / ٢١٩ – ٢٢٠ .

4 – سورة الزمر ، من الآية : ٣ .

5 – سورة يونس ، من الآية : ١٨ .

القادر الواحد ، الّذي بيده كلّ شيء ، قال تعــالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [3] ، وقد ذكر د . يحيى الجبوري أمثلة كثيرة [4] منها : أن أوس بن حجر عبّر في بيت عن اعتقاده بالله الّذي هو أكبر من كل المعبودات ، مع إقراره باحترام الّلات والعزّى ، وأقسم النّابغة الذّبياني بالله الّذي ليس وراءه شيء ولا أكبر منه ، وأكّد عبيــد بــن الأبرص على إيمانه بالله وتوحيده والقسم به ، وإنّه خالق الخلق ، وواهب الــنعم ، وآمن أفنون التّغلبي بأنّ الله هو الحافظ ، الّذي يلوذ إليه النّاس برحمته ، وبيّن أبــو قيس بن الأسلت أنّ الله يجزي على العمل الصّالح ، وأوضح لبيد العامري بأنّ للناس يوماً يقفون فيه بين يدي الله وتكشف أعمالهم ، وتُجزى كل نفس ما كسبت ، وأقــسم حاتم الطّائي بالله عالم الغيب ومحيي العظام وهي رميم في مثل قوله :

أَمــا وَالَّذي لا يَعلَــمُ الغَيبَ غَيــرُهُ ... وَيُحيِّ العِظامَ البيضَ وَهيَ رَميمُ

لَقَد كُنتُ أَطوي البَطنَ وَالزادُ يُشتَهى ... مَخافَــةَ يَومــاً أَن يُقالَ لَئيمُ [5]

من هذا المنطلق نرجّح صحّة الأبيات ، ولكن لا نجزم بذلك ، وعلى كلّ حال ، فهي تعبّر عن مدح ديني قلّما وُجد في الشّعر الجاهليّ ، وهو غير مستغرب مــن شاعر حكيم ، حسن البصيرة ، خطيب ومرشد ، وقاضٍ عادل ، يمدح الرّجل بما فيه ، ونكاد نجزم بأنّ هرماً استحق هذه الصّفات ، فهو سيد كريم ، حسن الخُلق ، عادل ، بينه وبين الفاحشات ستر من الحياء ، وخوف من الله ، ولا عجب في ذلك ، فقــد

---

1 – سورة لقمان ، من الآية : ٢٥ .

2 – سورة الزخرف ، من الآية :٨٧ .

3 – سورة يونس ، من الآية ٣١ .

4 – يُنظر ، د . يحي الجبوري ، الشّعر الجاهليّ خصائصه وفنونه ، ص ٦٨ – ٦٩ .

5 – ديوانه ، ص ٧١ .

كان على سبيل المثال حاتم الطائي سيداً كريماً ، حسن الخُلق ، على قدر كبير من الحياء ، يقول :

ما ضَرَّ جاراً لي أُجاوره أن لا يَكون لبيته سِترُ
أُغضي إذا ما جارتي بَرَزتْ حتّى يواريَ جارتي الخِدْرُ [1]

وكذلك كان عنترة بن شدّاد فارساً شهماً ، عفيفاً ، يقول :

وَأَغَضُّ طَرفي ما بَدَتْ لي جارَتي حتّى يُواري جارَتي مَأواها [2]

إذن نحن أمام فلسفة متميّزة في المدح عند هذا الشّاعر في هذا العصر ، يظهر فيها المدح الدّيني ، وإنصاف الممدوح ، ومدحه بما فيه .

مدح تتوافر فيه الموضوعية والصّدق ، مدح سادة كرام ، لمعت نجومهم ، تحلّوا بخلال حميدة ، وصفات مجيدة ، حيث : الشّجاعة ، والكرم ، وطيب المحتد ، والحزم والوفاء ، فهو لم يتخلّص من الصورة الجاهلية الّتي تشيد بمثل هذه الصّفات .

ولعلّ أكثر مدائحه وأفضلها ما قاله في هرم بن سنان ، لذا كما ذكر الرّواة أنّه عندما وفدت ابنة هرم على عمر بن خطاب ﷺ قال لها : ما كان الّذي أعطى أبوك زهيراً حتّى قابله من المديح بما قد سار فيه ، فقالت : أعطاه خيلاً تنضى وإبلاً تتوى ، وثياباً تبلى ، ومالاً يفنى ، فقال عمر : لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدّهر ولا يفنيه العصر ، ويُروى أنها قالت : ما أعطى هرم زهيراً قد نُسي ، فقال : لكن ما أعطاكم زهير لا يُنسى .

وذُكر أنّ عمر بن الخطاب قال لبعض ولد هرم : " أنشدني بعض مدح زهير أباك ، فأنشده ، فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول ، قال ونحن والله كنا لنحسن له العطاء ، فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم " [3] .

1 – ديوانه ، ص ٤٤ ، ويُنظر ، ديوانه ، ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٣ .
2 – ديوانه ، ص ٧١ .
3 – الأغاني ١٠ / ٣١٣ .

وذُكر أيضاً أن عمر بن الخطاب قال لابن زهير : " ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدّهر ، قال : لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يُبْلِيها الدّهر " (١) .

نعم ما أعطاه زهير لهرم لم يبله الدّهر ، ولم يفنه العصر ، ولن يُنسى على مر الأيام والعصور ، مدحه في سبع قصائد ، من أروعها الدّالية ، ثمّ الرّائية ، ومدح أباه سنان بن أبي الحارث في خمس قصائد ، وقصيدتين مع الحارث بن عون ، وكان للحارث بن عوف نصيب في قصيدة وقصيدتين مع سنان بن أبي حارثة ، أما الرّابعة ، فهي المعلقة مع هرم بن أبي سنان ، وحظي حصن بن حذيفة سيد بني فزارة بقصيدة رائعة وبني غطفان بدالية آية في الإبداع ، ولم ينسَ بني الورقاء فمدحهم بقصيدة .

لا شكّ أنّ زهيراً أجاد في قصائده ، وأظهر فلسفة قد تكون متميّزة في مدحه ، ولعلّ تجويده يعود إلى أمور منها :

- حرصه على تسجيل بعض مآثر سادات العرب ، الّذين كان لهم مكان مرموق في الحياة الجاهلية ، " فمدائحه تدل على براعة واضحة فقد كان يحسن التّعبير عمّا في نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد في القول ، فلا يُسرف ولا يغلو ، بل يمثّل ممدوحه بخصالة الّتي كان يشغفه بها الجاهليون ، ويرونها أمارة السيادة والشّرف"(٢).
- الوفاء الذي طبعت عليه نفسه ، وشدّه تأثره بأيدي ممدوحه عليه .
- اعتزازه بمفاخر القبيلة ، ومجدها ، ومآثرها مما يدفعه إلى مدح قومه .
- اتصاله بهرم ، وحبّه الشّديد له (٣) .

---

[1] – الأغاني ١٠ / ٣١٣ .

[2] – د . شوقي ضيف ، العصر الجاهليّ ، ص ٣١٣ .

[3] – يُنظر مقدّمة ديوان ، ص ١١ – ١٢ .

- حُسن شعره ومتانته ، وضوح معانيه وتناسق أفكاره ، رصانة أسلوبه ، إيجاز تعبيره ، صوره الحسنة في إبراز موضوعاته ، صدقه وعدله ورزانته ، حسن بصيرته ، وبعده عن السّحف ، قوله ما يعرف ، مدح الرّجل بما فيه .
- مدحه لسادة كرام استحقوا الثناء والإشادة .

كان هذا الشّاعر المفلق مصوّراً حريصاً على إتّقان صوره ، وتبليغ ألوانها ، للرّفع من مكانة ممدوحه ، وتوضيح المعنى ، وإضفاء الروّنق والجمال على أسلوبه ، مع أنّ لغته بروحها واتّجاهها وفنّها كانت لغة خطابية منطقية تصلح للشّعر الاجتماعي ، الّذي يتّصل بالعقل أكثر منه بالخيال ، فيها اعتماد على المادة لإظهار الحقائق ملموسة على منطق راجح وحبّ وإقناع (١) .

لقد اعتمد على عدّة صور بلاغية ، عبّر من خلالها عن أفكاره بكلّ دقة ، وأضفى على أسلوبه الرّونق والجمال ، لذا نرى أنّه من المفيد التّعرّف على بعض منها .

كان التّشبيه في مقدّمة صوره الشّعرية وأكثرها استعمالاً ، إذ وظّفه لتحقيق ما يريد من الدّقة والرّونق ، والصّدق ، والرّفع من قيمة الممدوح ، من خلال التّشبيه المفصّل أكّد على شجاعة قوم سنان بن أبي حارثة ، فقد شبّه خيولهم الّتي تفرّقت في أرض المعركة بتتابع شرر الحدّاد إذا ضربه بالمطرقة ، وفي ذلك إظهار للقوّة هذه الخيول وكثرتها وشجاعة فرسانها ، في قوله :

بَثّوا خُيولَهُمُ في كُلِّ مَعرَكَةٍ كَما تَقاذَفَ ضَربُ القَينِ بِالشَرَرِ

بيّن أنّ سناناً ، الّذي خاض غمار المعارك كان يرتدي دروعاً واسعة سابغة لامعة كالغدير ، إذ قال :

وَمُفاضَةٍ كَالنَهيِ تَنسُجُهُ الصَبا بَيضاءَ كَفَّت فَضلَها بِمُهَنَّدِ

ووظّف التّشبيه المجمل لبيان كرم هرم بن سنان ، إذ شبّه المحتاجين بجمال عطشى تحوم حول بيته طمعاً في كرمه ، ورغبة في عطائه ، يقول :

---

1 - يُنظر ، مقدّمة ديوانه ، ص ١٠ .

يَنزِعنَ إِمَّةَ أَقوامٍ لِذي كَرَمٍ بَحرٍ يَفيضُ عَلى العافينَ إِذ عَدِموا

وأبدع في تشبيه بليغ بالغ من خلاله في الثّناء على كرم ممدوحه حصن بن حذيفة ، النّقي من العيوب ، الكثير العطاء ، إذ شبّه يديه بالغمامة ، لأنّهما تمطران العطاء كما تمطر الغمامة ، في قوله :

وَأَبيَضَ فَيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ عَلى مُعتَفيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُه

وتأتي الاستعارة في المرتبة الثّانية في صوره الشّعرية ، للرّفع من قيمة ممدوحه ، إذ أكّد على كرم ممدوحه سنان بن أبي حارثة في استعارة مكنية في قوله :

أَيّامَ ذُبيانُ إِذ عَضَّ الزَمانُ بِهِم كانَ الغِياثَ لَهُم مِن هَيشَةِ الهُوَرِ

وثمّة استعارة مكنية أخرى في قصيدة أخرى في مدح السّيد نفسه :

إِلى مَعشَرٍ لَم يورِثِ اللُؤمَ جَدُّهُم أَصاغِرَهُم وَكُلُّ فَحلٍ لَهُ نَجلُ

وثمة تجسيم جميل للحمد للإشادة بكرم ممدوحه هرم بن سنان :

أَلَم تَرَ اِبنَ سِنانٍ كَيفَ فَضَّلَهُ ما يَشتَري فيهِ حَمدَ الناسِ بِالثَمَنِ

وفي القصيدة الّتي مدح فيها بني غطفان لمعت استعارة مكنية زادت المعنى وضوحاً وجمالاً ، أثنى من خلالها على كرم قيس عيلان ، إذ قال :

فاستمطروا الخير ، من كفيّه إنها بسيبه يتروّى ، منها ، البعد

وأجاد في اختيار ألفاظه في رفع طاقة الاستعارة التّصريحية ، وإعطائها القدرة على الإيحاء والتّأثير ، وإظهار قوّة ممدوحه سنان بن أبي حارثة في قوله :

عَلَيها أُسودٌ ضارِياتٌ لَبوسُهُم سَوابِغُ بيضٌ لا تُخَرِّقُها النَبلُ

وكذلك في الاستعارة المكنية في الثناء على شجاعة ابنه هرم وقوته في مثل قوله :

وَإِن سُدَّت بِهِ لَهَواتُ ثَغرٍ يُشارُ إِلَيهِ جانِبُهُ سَقيمُ

وفي قصيدة بعنوان فتى لا يلاقي القرن إلاّ بصدره ، كانت الاستعارة المكنية حاضرة في مثل قوله :

وَكُرَّت جَميعاً ثُمَّ فُرِّقَ بَينَها سَقى رُمحَهُ مِنها بِأَحمَرَ آني

وعبّر عن بعض المعاني بطريقة تصويرية غير مباشرة ، تناول من خلالها تصوير مواقف دلّت على صحة هذه المعاني بصورة بديعة ، فقد كانت الكناية

حاضرة بصورة لافتة في ثنائه على كرم ممدوحه سنان بن أبي حارثة ، الّذي كـــان يُعطي إذا اشتدّ الزّمان وخرجت الفتاة المصونة ، تعالج القدر ، من الجهد ولا تستحي في مثل قوله :

عَطاءٌ لا تُكَدِّرُهُ بِمَنٍّ   إذا دَنَت الكَعابُ مِنَ الدُخانِ

فجملة " دنت الكعاب من الدّخان " كناية عن صفة " الجدب " .

وقد وفّق في كنايته عن كرم ممدوحه هرم بن سنان ، إذ قال :

رَحبُ الفناءِ لَوَ أنَّ الناسَ كُلَّهُمُ   حَلّوا إِلَيهِ إلى أن يَنقَضي الأَبَدُ

وكذلك في التّأكيد في قصيدة أخرى على كرم ممدوحه نفسه :

وَحَبسُهُ نَفسَهُ في كُلِّ مَنزِلَةٍ   يَكرَهُها الجُبناءُ الضاقَةُ العَطَنِ

كناية عن ضيق النفس والبخل .

وأبدع إلى حدّ كبير في كناية عن كرم حصن بن حذيفة ، في قوله :

وَذي نَسَبٍ ناءٍ بَعيدٍ وَصَلتَهُ   بِمالٍ وَما يَدري بِأَنَّكَ واصِلُه

وقدّم لفتات تصويرية محسوسة فيها إرضاء الحواس ، والتأكيد على شجاعة ممدوحيه قوم سنان بن أبي حارثة ، فهم رجال حرب وغزو ، في قوله :

الضامِنونَ فَما تَنفَكُّ خَيلُهُمُ   شُعثَ النَواصي عَلَيها كُلُّ مُشتَهِرِ

وفي ثنائه على قوّة هرم بن سنان وشجاعته ، إذ قال :

أَلَيسَ بِضَرّابِ الكُمـــاةِ بِسَيفِهِ   وَفَكّاكِ أَغلالِ الأَسيرِ المُقَيَّدِ

وَثِقلٌ عَلى الأَعداءِ لا يَضعَونَهُ   وَحَمّالُ أَثقالٍ وَمَأوى المُطَرَّدِ

وهو بذلك يُظهر الأمور المعنوية في صورة حسيّة نابضة ، فيها تأكيد على الصّفات الّتي خلعها على ممدوحيه .

وخلاصة القول :

نشأ المدح في شعر العرب قبل الإسلام إعجاباً بالفضيلة وثناءً على صاحبها ، وقد كانت خُلقيته تتمثّل في توق الإنسان إلى الحياة الفضلى ، وبلوغ ما رسمته من مثل أعلى ، وإن كانت له أهداف أخرى .

وكان لنشأة زهير بين أخواله أثر في فلسفة مدحه ، فقد ورث منهم موهبة الشّعر ، والنّبل والوقار ، والعفاف والغنى ، والحكمة وفصل الخطاب ، مدح ساداتهم وكبراءهم ، ولم تهزّه العمومة من مزينة ، فأجزلوا له العطاء ، وإن لم يطلبه ، ولم يسعَ إليه ، وربما أغدق عليه هؤلاء السّادة من قبيل جودهم وكرمهم وتقديرهم له ، فقد كان شديد الحبّ لهرم ، وكان هرم يبّره ويجزل له العطاء ، استحق أن يُسمّى قاضي الشّعراء ، لم يقُل ، إلا ما يعرف ، ولم يمدح الرّجل إلا بما فيه ، لم يعاضل في الكلام ، وكان يتجنّب حوشي الشّعر ، رافقته الحكمة والرّزانة ، والنّبل والوقار ، فهو رزين ، في مدحه ، فُضّل على الشّعراء ؛ لأنّه أمدحهم وأشدّهم مبالغة في المدح ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل المنطق ، وكان بعض مدحه خدمة للسّلام ، ورغبة في حقن الدّماء ، أي أنّه بدافع إنساني خالص ، وإن نال جزاء ذلك منحاً وأعطيات .

والحق أنّه قد نظم في هرم باقة من أجود الشّعر ، خلّدت هرماً مدى العصور .

وقد استوفى ضروب المدح ، وسلك في مدحه للسّادة طريقة الإيضاح ، والإشادة بذكره للممدوح ، وجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقيّة ، غير مبتذلة ، وعمد إلى روعة التّصوير ، وجمال التّعبير ، ورهافة الحسّ ، وعمق الشّعور ، وسعة الخيال ، وإثارة العواطف ، وتحريك الوجدان ، فكان بحقّ له فلسفة قد تكون متميّزة في عصره .

المصادر والمراجع :

١. القرآن الكريم – رواية حفص – دار الخير للطّباعة والنّشر والتّوزيع – بيروت – الطّبعة الثّانية – ١٤٠٧هـ .

– ابن أبي سلمى ، زهير المزني الغطفاني (ت ٦٠٩ هـ) .

٢. ديوانه – تقديم وشرح وتعليق د. محمّد حمود – دار الفكر اللّبناني – بيروت – الطّبعة الأولى ١٩٩٥م .

– ابن حبيب : محمّد (ت ٢٤٥) .

٣. المحبر – طبعة الهند – ١٩٤٢ .

– ابن رشيق : أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ) .

٤. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه محمّد محيي الدّين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – الطّبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

– ابن عبد ربه : أحمد بن محمّد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ) .

٥. العقد الفريد ج ١– الكتاب العربي بيروت لبنان مطبعة التّأليف والتّرجمة والنّشر – القاهرة الطّبعة الثّانية – ١٣٤٨ هـ – ١٩٦٥ م .

– ابن قتيبة : أبو محمّد عبد الله بن مسلم الدّنيوي (ت ٢٧٦ هـ) .

٦. الشّعر والشّعراء ج١ – دار الثّقافة بيروت لبنان – الطّبعة الثّانية ١٩٦٩ م .

– ابن منظور : جمال الدّين محمّد بن مُكرَّم الأنصاري (ت ٧١١ هـ) .

٧. لسان العرب – ج ٣ طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق – المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والأنباء والنّشر – الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة(بلا تاريخ) .

– ابن الورد : عروة (ت ٥٩٤ م) .

٨. ديوانه – شرح ابن السكيت – حقّقه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي – مطابع وزارة الثّقافة والإرشاد القومي (لا م . ن) – (بلا تاريخ) .

– أبو حاقة : أحمد .

٩. فن المديح وتطوّره في الشّعر العربي – منشورات دار الشّرق الجديد – بيروت – الطّبعة الأولى آذار (مارس) ١٩٦٢ م .

– الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسن بن محمّد القرشي (ت ٣٥٦ هـ) .

١٠. الأغاني – ج ١٠ – دار الثّقافة بيروت ١٩٥٦ م .

– الجّاحظ : أبو عثمان بن عمر بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ)

١١. الحيوان ج٣ – تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – الطّبعة الثّانية ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م .

- الجبوري : د . يحيى وهيب .
١٢. الشّعر الجاهلي خصائصه وفنونه – منشورات جامعة قاريونس بنغازي – الطّبعة السادسة ١٩٩٣ م .
- الجمحي : محمّد بن سلاّم (١٣٩ – ٢٣١ هـ) .
١٣. طبقات فحول الشّعراء – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطّبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
- حسنين : د. سيد حنفي .
١٤. الشّعر الجاهلي ، مراحله واتّجاهاته الفنيّة " دراسة نصيّة " – الهيأة المصرية العامّة للتّأليف والنّشر .
- الزّوزني : القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت ٤٨٦) .
١٥. شرح المعلقات السّبع – مكتبة المعارف – بيروت – لبنان – الطّبعة الأولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م .
- الطّائي : حاتم بن عبد اله بن سعد الطّائي (ت ٥٧٨ م)
١٦. ديوانه – تحقيق وشرح كرم البستاني – مكتبة صادر بيروت ١٩٥٣ م .
- ضيف : د. شوقي .
١٧. العصر الجاهلي – دار المعارف – الطّبعة التّاسعة عشرة – ١٩٦٠ م .
- عليّ : د. جواد .
١٨. المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام – دار العلم للملايين – بيروت الطّبعة الأولى ١٩٧٠م.
- الفيروز أبادي : مجد الدّين محمّد بن يعقوب الشّيرازي (هـ ٨١٧) .
١٩. القاموس المحيط ج١ – دار العلم للملايين – بيروت – الطّبعة الأولى ١٩٧٠م .
- قدامة بن جعفر : أبو الفرج (ت ٣١٠ هـ) .
٢٠. نقد الشّعر – تحقيق وتعليق د. محمّد عبد المنعم خفاجي – المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة الأولى ١٤٢٦ – ٢٠٠٦م .
- المفضّل الضّبّي : أبو العبّاس المفضل بن محمّد (ت ١٧٨ هـ) .
٢١. المفضّليات – شرح أبو محمّد القاسم بن محمّد بن بشّار الأنباري – عُني بطبعه ومقابلة نسخه وتذيله بحواشي وروايات لعدّة لغويين وعلماء كارنوس يعقوب لايل – مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٢٠ م – أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنّى بغداد لصاحبها قاسم محمّد الرّجب (بلا تاريخ) .